ملحق النهار

النهار
81 سنة

السبت 2 آب 2014 | Samedi 2 Août 2014 | العدد 1166

18 رسالة إلى خليفة المؤمنين: ارمِ سلاحك يا بغدادي

20 هزيمة المثقفين العرب

21 زيارة لجبل عامل

أربعة نداءات ضرورية وعاجلة

فلسطين تُستباح. المسيحيون الشرقيون يُقتَلعون من الأرض الأولى تحت عين الصمت المريبة. بلاد الرافدين تتفكّك. وثمّة مَن يعلن فيها "دولة الخلافة". بلاد الشام تصير أكثر فأكثر أرضاً للمقابر الجماعية والأحلام المضرّجة، حيث لا تُسمَع إلاّ تنهدات الذهول والعويل والرثاء. لبنان الذي كان وعداً شرقياً بالفردوس الأرضي، لم يعد غابةً للبخور واللبان، بعدما أصبح على أيدي ناهشيه والكثير من قادته السياسيين والدينيين، وزمر مذاهبه وطوائفه وقبائله، مقرّاً للعنة السوداء.

تقرأون في ما يأتي، أربعة نداءات ضرورية عاجلة، مكتوبة بحبرٍ مدني، علماني، ربما تحتاج دلالاتها وأبعادها منكم إلى أن تأخذوها بالكثير من العقلانية والتبصر والشجاعة.

لوحة لمنصور الهبر.

عقل العويط

نداء إلى مسيحيي الشرق

أنتم مسيحيون مقيمون في الأرض الشرقية لأنكم أبناؤها، ولأنكم أصحاب رسالة فيها. فأن تكونوا أبناء هذه الأرض؛ هذا يعني أن تتركوا كل شيء وتتبعوا رسالة المسيح فيها، التي هي جلجلةٌ وشهادة. كلّ مَن هو دون هذه المهمة ممّن يَسَمَّون مسيحيين، يمكنه أن يتخلّى؛ ولا عيب. ويمكنه أن ينأى عن الصليب؛ ولا ضير. لكنه يكون قد قرّر أن يصير أيّ كائنٍ آخر؛ ولا مهانة. بل هو يكون في حريته المطلقة.

أن تكونوا مسيحيين مقيمين في الأرض الشرقية، يستلزم بالضرورة أن تكونوا جسد المسيح. ينالكم ما ناله، ويصيبكم ما أصابه. بالدعوة. بالموت. وبالقيامة.

لا مجال لأيّ تأويلٍ ماكرٍ أو مضادّ. فالذين منكم لا يستطيعون، عليهم بالضرورة، أن يبحثوا عن كلّ واقعٍ ممكن آخر، وعن كلّ مصير. قد يكون الثمن رضوخاً. أو نزوحاً. أو هجرةً. أو تقيةً. فافعلوا ما تستطيعون. ما تشاؤون. وما ترغبون.

> **ليس من رفاهٍ أرضيّ مع المسيح. وليس من ملكوتٍ ها هنا. مَن استطاع منكم أن يحمل صليبه، هنا، والآن، فليحملْه. ومَن لا، فليبحثْ عن حلّ دنيويّ آخر. هذا هو ندائي إليكم، يا مسيحيي الأرض الشرقية؛ خصوصاً منكم المعذَّبين والمضطهَدين؛ أحضّكم فيه على البقاء في الأرض، والشهادة للمسيح. مَن له أذنان سامعتان منكم، فليسمع**

أن تكونوا مسيحيين مقيمين في الأرض الشرقية؛ إنها لمسؤولية عظمى، ينوء تحتها الكثيرون. فأن تنوؤوا، فذاك من صميم الطبع البشري. لكنكم مسيحيون. فيجب، والحال هذه، أن يكون كلٌّ منكم مسيحاً، كالمسيح الذي كان على الصليب. مع وعد بالخلاص والقيامة.

ليس من أنصاف حلول في هذه المسألة. الصليب مندرجٌ في جوهر اللاهوت. وفي صلب العقيدة.

أنتم مسيحيون مقيمون في الأرض الشرقية، لأنكم أصحاب أرضٍ ورسالة. وليس لأنكم أكثرية أو أقلية. وليس لأن دولةً تحميكم. أو لأن نظاماً يرعاكم. أو لأنكم تنتظمون في العهدة الذمية المريعة.

هذا قَدَرٌ. وهو خيارٌ روحي وعقلي في الآن نفسه. ولا أنصاف حلول.

ليس من رفاهٍ أرضيّ مع المسيح. وليس من ملكوتٍ ها هنا.

مَن استطاع منكم أن يحمل صليبه، هنا، والآن، فليحملْه. ومَن لا، فليبحثْ عن حلّ دنيويّ آخر.

هذا هو ندائي إليكم، يا مسيحيي الأرض الشرقية؛ خصوصاً منكم المعذَّبين والمضطهَدين؛ أحضّكم فيه على البقاء في الأرض، والشهادة للمسيح. مَن له أذنان سامعتان منكم، فليسمع.

■■■

نداء إلى المسلمين

ماذا تفعلون بدينكم؛ بأهلكم؛ بفلسطينكم؛ وببلاد العرب؛ أيها الناس؟ أأنتم صمٌّ؟ بكمٌ؟ عميٌ؟ أم هل أقول: تبّاً لكم لأنكم تسمعون، وتتكلمون، وترون، كأن شيئاً لم يكن ولا يكون!؟

أنتم، يا أبناء الدعوة المحمدية الكريمة؛ ها تمشون، صاغرين، كالأغنام، كالمرضى المنوَّمين، وراء الرعاع والأفّاقين وقطّاع الطرق والكفّار والملحدين من بينكم، فتقيمونهم ملوكاً وأمراء وخلفاء عليكم.

أنتم، بهذا، إلى جهنمّ. فهل أقول: بئسَ (بل نعمَ) المصير؟!

أمامكم الآن؛ بقادتكم السياسيين؛ وأخصّ السعوديين والمصريين والأتراك والإيرانيين؛ ببسطائكم؛ برؤساء الدين فيكم؛ وأخصّ مفتي الأزهر، ومفتي الديار السعودية، والإمام الخامنئي؛ مهمةٌ واحدة وحيدة: لا أن تنقذوا مسيحيي الشرق (حاشا. والبتة. وأبداً!)، بل فقط أن تنقذوا دعوة محمد من براثن هؤلاء الظلاميين، وأظفارهم، وأسنانهم!

عيبٌ عليكم، يا مَن تدّعون الإسلام الحنيف، أن يتعرّض الإسلام للنهب والتشويه تحت أيديكم وأنظاركم، وأن يكون مصيره رهينةً بين أنياب هؤلاء.

عيبٌ عليكم أن يكون الإسلام في خطر.

عيبٌ عليكم أن تتركوا محمّداً، نبيّكم، وحيداً في هذه المحنة الوجودية والدينية الرهيبة.

أنتم؛ بقادتكم السياسيين؛ ببسطائكم؛ وبرؤساء الدين فيكم؛ تتحملون العار كلّه. والمسؤولية الكاملة. والمطلقة. من صغيركم. إلى الكبير.

جريمتكم لا تُغتفَر. أما حسابها للمؤمنين منكم وللكفّار على السواء، فالنار التي لا تنطفئ. تلتهم أجسادكم ونفوسكم. وأجساد أولادكم. وأولاد أولادكم، والنفوس.

يا ويلكم من أسى محمّد، ومن غضبه! فسيرسل إليكم من حيث هو، باسم ربّه الأكرم الذي علّم بالقلم، سيرسل الطير الأبابيل لتضربكم لا لتحميكم. ونعمَ الغضب والمصير.

لقد تأخرتم كثيراً، أيها الناس. فلا تتأخروا أكثر.

أتريدون آيةً تحضّ كباركم والصغار، أهل "الخلافة" وأهل "الولي الفقيه"، سنّتكم والشيعة، المؤمنين الطيّبين، المتنوّرين، والعقلانيين، على النهوض من الكارثة المحدقة بالإسلام والمسلمين، و... بفلسطين؟

خذوا هذه الآية إذاً، مقطوفةً من سورة الشورى في الكتاب العزيز: "إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليم".

وإذا لم تتعظوا، فخذوا الثانية مقطوفةً من سورة النساء: "إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً".

■■■

نداء إلى "حزب الله"

عد، الآن، وأتباعكَ، إلى الجمهورية اللبنانية.

■■■

نداء إلى العلمانيين والمثقفين العرب

أما نحن العلمانيين والمثقفين العرب فقد لا نكون نساوي عملياً الشيء الجليل. بل ربما أثبتنا أننا أصغارٌ في الأرقام، لكن على الشمال.

الأكيد أننا في غالبيتنا "ظاهرة صوتية"، "كتّيرون حكي"، وأصحاب شعارات جوفاء. لا أكثر.

الأكيد أن غالبيتنا – ولا تعميم - تبيع وتشتري وتقبض. ومَن لا يفعل هذا، يسكت. أو يغضّ.

قلائل منا يشعرون بالموت المعنوي المهين، من جرّاء ما هي عليه أحوال هذه العروبة التي يُفترَض أن تكون مدنية، علمانية، ديموقراطية. لكنها بكلّ أبهة واعتزاز، عروبة إسلاموية، ديكتاتورية، استبدادية، ظلامية، مسكينة، مهيضة، وسخيفة.

هل يتجاسر أحدٌ من غالبيتنا الأقلوية هذه، أن ينظر بعد الآن في عينَي طه حسين؟! أو في عينَي جبران؟

وإذا من استحقاق، فنحن نستحقّ أن نَطمَر تحت التراب، خجلاً ومهانةً.

فما أتعسنا. وما أبشعنا!

لقد كتبتُ قبل أسبوعين، ما مفاده أن لا حلول للمنطقة العربية سوى هذه الحلول الثلاثة: إنهاء الاغتصاب الصهيوني لفلسطين (الأجدى أن أقول إنهاء الوجود الفلسطيني في فلسطين)، إقامة الدولة المدنية العلمانية (الأجدى أن أقول بدولة الخلافة الشنيعة هذه، المستتبة في بعض العراق والشام)، وسحب الإسلام من الشوارع (الأجدى أن أقول لم يعد فينا إسلامٌ ولا مسلمون).

أخاطب مَن فيه حكمةٌ ودمٌ وحياءٌ وكبرياء وكرامة: يجب أن نضع حدّاً لما يجري. يجب أن نخترع شيئاً جنونياً. يجب على الفور أن نخترع هذا الشيء!

قد لا نملك في أيدينا حلولاً سياسية. لكنْ، فلنحمل جميعنا الحجار، حجار الكلمات (ولِمَ لا الحجار والصخور)، ولنرشق بها بيوت الرؤساء والملوك والأمراء والشيوخ والقادة السياسيين وقادة الجيوش ومسؤولي الدين. ولنفعل ذلك ليلاً ونهاراً. صبحاً وعشيةً. ولنقضّ مضاجعهم. ولننتهك أحلامهم. ولندنّسها. ولنفعل ما لا يُفعَل. إلى أن تتزلزل عقولهم وأفئدتهم. وكذا أقول أيها العلمانيون والمثقفون: لا مفرّ من عملٍ جنوني يضع حدّاً لهذه الكارثة. لا مفرّ!

* في العدد الفائت من "الملحق"، وقعتُ في خطأ طباعي رهيب، حين استخدمتُ كلمة "الحلاّج" بدل "الحجّاج"، وكلمة "الحلاّجين" بدل "الحجّاجين". هاكم الجملة المصحّحة: "لكنْ، مرةً ثانيةً أنبّهك (أيها الديك). فإيّاكَ ثمّ إيّاكَ: لا تأخذنّ صالحاً بجريرة طالح. ولا تفعلنّ على غرار الإله القاتل، ولا الحجّاج القديم، ولا على غرار الحجّاجين الجدد هؤلاء". وقد اقتضى التصويب، والاعتذار من سيّدي الحلاّج، ومن القارئ، على السواء.

> **أمامكم الآن؛ بقادتكم السياسيين؛ وأخصّ السعوديين والمصريين والأتراك والإيرانيين؛ ببسطائكم؛ برؤساء الدين فيكم؛ وأخصّ مفتي الأزهر، ومفتي الديار السعودية، والإمام الخامنئي؛ مهمةٌ واحدة وحيدة: لا أن تنقذوا مسيحيي الشرق (حاشا. والبتة. وأبداً!)، بل فقط أن تنقذوا دعوة النبي محمد من براثن هؤلاء الظلاميين، وأظفارهم، وأسنانهم!**

عن الأرض التي من تحت أقدامهم. يجب أن ندركب الجبال على رؤوس هؤلاء جميعاً. وفوراً.

ولنغمس حبرنا جميعه بالمرّ والعلقم. بل بالسمّ الزعاف. ولنحقن به رؤوس هؤلاء، من قادة الدين والدنيا. إلى أن تشفى. وتنتفض. أو تنفجر.

akl.awit@annahar.com.lb

النهار
81 سنة

رسالة إلى خليفة المؤمنين: ارمِ سلاحكَ على الأرض الآن علامَ التغطرس وأنتَ ضعيفٌ وجاهلٌ يا أبا بكر البغدادي!

رؤوف قبيسي

لله درّكَ. منذ سقيفة بني ساعدة ونحن في انتظارك. ساعة مات "النبي"، اجتمع المسلمون في السقيفة وانتخبوا سميّكَ الصدّيق، ثم اختلفوا من بعده، ولا يزالون مختلفين. بعضهم قال إن علياً أولى بالخلافة من بعد الرسول، لأنه ابن عمه، وزوج ابنته، وأبو سبطيه. هؤلاء هم الشيعة، أتباع الإمام وأتباع أولاده من بعده. لكن ما كُتب قد كتب، وهيهات هيهات أن نغيّر في السيرة حرفاً واحداً!

في ذلك الاجتماع، كاد المسلمون أن ينقسموا على أنفسهم، حتى قال عمر بن الخطاب إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها. وها أنتَ اليوم، يا أبا بكرنا الجديد، تعلن نفسك خليفةً، ويبايعكَ مَن هم حولك، من دون أن يكون لكَ منافس. تكفيكَ أصوات المجاهدين معكَ، الذين على سواعدهم، ترتفع أعمدة إسلام جديد غير معهود!

أنتَ قائدنا الطاهر الظافر القاهر يا أبا بكر. أرسلتكَ السماء لتعيد إلى الأمة مجدها، وتطهّر الأرض ممّن دنّسوا دينها، وعابوا حرمتها، وسفّهوا أحلامها. اقتل السنّة الذين لا يرون رأيكَ، يا خليفة المؤمنين. اقتل الشيعة الكفرة. أضرم النار في مساجدهم ومراقد أئمتهم، ولا تنس وأنتَ على دروب الجهاد، أن تفعل بالنصارى ما تفعله بالروافض. حطِّمْ كنائسهم، وأديرتهم، وصلبانهم، وأيقوناتهم. أحرقْ أناجيلهم وأعمال رسلهم، وبعثِرْها في العراء، فهم حرفوا الكلم عن موضعه، وجعلوا لله أنداداً.

أما اليهود، أبناء عمّنا إسحق، من جدّنا إبرهيم وزوجته ساراي، فدعهم وشأنهم، لأن لا حيلة لكَ ولنا عليهم! اصفحْ لهم عدوانهم، واغفرْ لهم خطاياهم في غزة وغير غزة، فهم أخوةٌ لنا في الدين، موحّدون مثلنا، لا يعتقدون بالتثليث، ولا يؤمنون بمسيح مصلوب، ويختنون أبناءهم كما نختن نحن أبناءنا، وهم مثلنا لا يأكلون لحم الخنزير، ويدعون إلى دولة يهودية، كما ندعو نحن إلى دولة إسلامية!

لا تكن رفيقاً بالناس كما كان "رسول الله". السيرة تخبرنا أن نبي الإسلام عندما عاد إلى مكة فاتحاً، خاطب الناس قائلاً: "يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل بكم، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم يا محمد، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء".

أخالكَ تقول إن الرسول أخطأ، وكان أولى به أن يبيد الكفرة عن بكرة أبيهم. ما همّ، السيف أصدق إنباءً من الكتب، وسيفك لم يسبق العذل بعد، وفي إمكانك، وأنتَ اليوم خليفتنا الجديد، أن تسير بالرعية، سياسة تخالف سياسة الرسول، وتصحح ما اكتنف تاريخنا من أخطاء.

بدِّد شمل الكفرة أيها العظيم بين الأمم. اقطعْ رؤوسهم كما يقطع الجزّارون رؤوس الغنم. ابترْ أجسادهم إرباً إرباً وارمِ أطرافهم في النار، وحين يدرككَ الفتور من ثغب الدماء، خذْ نساءهم لراحتك وراحة جنودك، فما أراكَ بعد ذلك والله قاتلاً، بل مسبّحاً بالقول: "سبحان الذي خلق الناس في أحسن تقويم"!

■■■

تعبتَ أنا الآن يا أبا بكر، وأرى الناس قد عافت فصاحتي، لذا أريد أن أخاطبكَ بلغة أقل فصاحة، لا عوج فيها ولا تكلّف ولا التواء، وأقول: أنتَ أكبر كافر في هذا العالم يا بغدادي. قد لا تكون أكبر قاتل، فغيركَ قتل أكثر مما قتلتَ، لكنكَ، بأحكام الكتاب الذي تدّعي أنك به تدين، أكبر كافر في هذا العالم، بل أكبر كافر في الكون، إذا كان في هذا الكون من عالم آخر.

كان أهل اليونان في الزمن القديم، يرمزون إلى الرجل الحكيم بفيل له عيون أربع؛ حكيم يرى كل الجهات، راشد لا عصبة على عينيه، ولا يعرف العصبية، ويقبل وجهات النظر كلها.

هذا هو الفارق بيني وبينكَ.

أنتَ متديّن ومدمن أديانـاً، لا تعرف كيف تتدبر القرآن، وليس في قلبكَ شفقة ولا رحمة. تقرأ الكتاب بعين واحدة، أما أنا فمؤمن، أقرأه بعيون أربع، وأستمد منه ما يصلح شأن دنياي، وأتصالح به مع نفسي ومع الناس، وأقبل كل شرائح الملل والنحل في هذا العالم.

سأرشدكَ إلى ما في القرآن حتى تتدبّر القرآن، فلا تقرأه بعين واحدة بعد الآن، بل بعيون أربع، ونية سليمة وقلب منفتح، لأن هذا هو المعنى الأصيل لفعل "التدبر". إذا أردتَ أن تفعل ذلك، وتنشر الإسلام حقاً كما تقول، فأول شيء عليكَ أن تفعله أن تردّ سيفك إلى غمده يا ابن بغداد "لأن من يأخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ". احتكمْ إلى القرآن، وقل "ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب".

خذ من السيرة ما يطهّر القلوب، وما يشفع لكَ وللناس، ولا تأخذ ما يثير الضغائن والأحقاد. خذ قول عمر بن الخطاب: "كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟". خذ قوله للرجل الذي أراد أن يحمل عنه عدل الدقيق للعائلة الجائعة، فقال له عمر زاجراً: "أأنت تحمل الوزر عني يوم القيامة؟". إمتثلْ بقول علي يخاطب الدنيا وما فيها من ذهب وفضة: "يا دنيا غرّي غيري، يا صفراء غرّي غيري، يا بيضاء غرّي غيري". دع الخلق للخالق يا أبا بكر، واعملْ بآية تصلح لأن تكون أعظم مثال لحرية العقل في العالم، الآية التي تقول "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".

لا وكلاء في الإسلام يا بغدادي، فلا تجعلْ نفسكَ وكيلاً على الناس، وعلى "الله" وحده "فليتوكل المؤمنون". إدع إلى "ربّكَ" بالحسنى، ولا تأكل أموال الناس وتأخذ أرضهم غصباً "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر". لا تخلقْ عداوة بينك وبين البشر، "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم".

لا تحكم على الناس ولا تحاسبهم "ولو شاء الله ما أشركوا ما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب". إذا كان "الله" يقول للرسول بلِّغ ولا تحاسب، فمن أنتَ يا بغدادي لتحكم على الناس وتقول: "قد قيل لكم كذا وكذا أما أنا فأقول لكم"؟

ارحم الناس وارحمْ والديكَ يا ابن بغداد "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربّياني صغيراً". كن ساعياً للخير واشكر "الله" على ما أسبغ عليكَ من نعم، "فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربّكَ فحدث".

لا أشك في أنكَ قرأتَ القرآن، وقد تكون حفظتَه عن ظهر قلب، ولا أشكّ في أنكَ قرأتَ كتباً من السيرة، وحفظتَ الكثير من الحديث، واجتزتَ كل امتحان أعدّته لكَ "جامعة الدين"، لكن هذا كله، ليس كافياً لتصل إلى الرفيق الأعلى الذي هو "الله" في عرف المؤمنين. لا يكفي يا بغدادي، أن تدخل "الجامعة الدينية"، وتجتاز امتحاناتها، وتنال شهاداتها العليا، إذا لم تتدرج في "حضانة الإيمان"، وهذه أبوابها مفتوحة أمام كل الطلبة، من كل جنس ولون، حتى أمام البسطاء. أما الدروس فيها فمن أسهل الدروس، وامتحاناتها من أسهل الامتحانات، لكن الفوز فيها صعبٌ على بعض الناس، سهلٌ على بعضهم الآخر، سهلٌ حتى على الأميين منهم. هي امتحانات لا يجتازها إلا المؤمنون الذين صفت نفوسهم من أدران الأرض وتشبعت بأنوار السماء، وأنتَ أبعد ما تكون عن كل هذا يا بغدادي!

أتريد مزيداً من الضوء في ديجوركَ يا أبا بكر؟

أعرف أنكَ صعب، ومن الصعب إرضاؤكَ، لكني سأسير معكَ كما سار الخضر مع موسى، وأجهد ما وسعني الجهد، لآخذ بيدكَ، فتربح معركة العقول والقلوب، وتكون راعياً صالحاً، لا راعياً أعور بين أشواك. لا أخفيكَ، أني أخشى إن جعلتكَ تسير معي الدرب الطويلة، أن تفقد صبركَ، كما فقد موسى صبره في تلك القصة المثيرة من "سورة الكهف"، وأن يحدث فراقٌ بيني وبينك، فراق ليس بعده لقاء!

في القرآن آية لا أظنّ كُتّبَ الدهور جاءت بأجمل منها. يكفي أن يقرأها المؤمن العاقل ليعدّها ميثاقاً للشعوب ودستوراً للامم، عنيتُ بها الآية العظيمة من سورة المائدة التي تقول "إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون".

لو عمل "المسلمون" بهذه الآية لاستتبّ السلم في ديارهم، ولو فهمتَها أنتَ حقّ الفهم يا أبا بكر، وعملتَ بها لما غررتَ بالناس، ولوّثتَ يديكَ بدم الأبرياء، وجلبتَ على أمّتكَ، هذا الكمّ الهائل من الويل والثبور وعظائم الأمور.

أقطع بأنكَ قرأتَ هذه الآية غير مرة يا بغدادي، لكن هل فكرتَ فيها جيداً؟ هل تدبّرتها بصفاء المؤمن حقاً؟ لا أظنّكَ فعلتَ، وإلا لما أعلنتَ نفسكَ خليفةً، وتمنطقتَ بالرصاص، وأطلقتَه يميناً وشمالاً، لتودي به مَن يعتقد بغير ما تعتقد، ويرى غير ما ترى.

إذا أردتَ العمل بهذه الآية، فارمِ سلاحك على الأرض من الآن. استغفر "ربّكَ"، ودع الخلاف بينكَ وبين الناس جانباً. اتركه في يد "الخالق"، وحده ينبئكَ بما فيه، فهو "القادر على كل شيء، وهو التوّاب وهو الغفور الرحيم".

إذا فعلتَ ذلك فقد يغفر "الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر"، وعندها لا تصبح خليفةً على الناس فحسب، بل تغدو رسولاً. ألم يقل ابن الفارض: "كل من دعا منا إلى الحق قام بالرسلية"؟ أظنّكَ لا تعبأ بابن الفارض هذا، ولا تعتدّ بما نُسِب إليه، لأن ابن الفارض كان متصوفاً وأنتَ تكره المتصوفين، ولأن ابن الفارض كان بصيراً وأنتَ تكره المبصرين. لكن من حسن طالع هذا الحكيم أنه عاش في زمن غير زمانكَ، ولو كان بين ظهرانيك، لفقأتَ عينه، لأنكَ لا تريد للرعية أن يكونوا مبصرين، كما كان ابن الفارض، بل "صمّ بكمّ عمي فهم لا يعقلون".

أراكَ تبجّل السيرة وتجعل ما فيها من سنّة "الله" ورسوله. أما أنا فلا أعتدّ بكل ما جاء في السيرة، وآخذ منها ما يتلاءم مع نصّ القرآن وروحه، ولا شيء آخر غير نصّ القرآن وروحه. الناس كلهم "أبناء الله يدعون"، سنّةً وشيعة ودروزاً ونصارى، يهوداً وصابئة، بوذيين ولاأدريين وملحدين. أعتبرهم أبناء الإنسانية، واعتبر القاطنين في بلاد العراق والشام بشراً، متساوين معي في الحقوق والواجبات. قد اختلف معهم في الرأي، وهذا من سنن الطبيعة، لكننا لا نحترب ونتقاتل، بل نترك أمرنا إلى "الله" الذي يقول لنا القرآن إنه المرجع، الذي سوف ينبئنا بما كنا فيه نختلف. هذا القرآن، وليس أنتَ يا بغدادي، الذي يقول لنا أيضاً إن "الله" لو أراد "لجعل الناس كلهم أمة واحدة".

أتريد أيها الخليفة الجديد أن تحكم بما ليس في القرآن؟ أتريد أن تقنعنا بأنكَ تأتمر بأمر السماء، وبأن سيفكَ أفضل من سيف خالد بن الوليد؟ ها هي كتب السيرة تقول إن عمر بن الخطاب طلب إلى الخليفة أبي بكر أن يعزل خالد بن الوليد، لأنه وجد في سيفه رهقاً، فأجابه أبو بكر: "قد سمعت رسول الله يقول لن أعزل سيفاً سلّه الله لخدمة الإسلام والمسلمين"، فلما تولى عمر الخلافة من بعد أبي بكر، كان أول قرار اتخذه، عزل خالد بن الوليد.

لا أحسبكَ إلا مصدّقاً هذه القصة التي جاءت في السيرة، وذكرها ابن هشام ودوّنها الطبري من بعده. وبعد، أتريد أن تقول لنا يا أبا بكر البغدادي إن سيفكَ نظيف لا رهق فيه، وإنكَ لن تتخلى عن القتل به، وتعتبره أفضل من سيف خالد بن الوليد؟

لا يا بغدادي. على رسلك، كما تقول العرب، سيفك ليس أفضل من سيف خالد بن الوليد. لا وألف لا يا بغدادي. لا "وربّ الكعبة"!

■■■

كانت لي في بيتنا القديم بندقية من خشب طلّقتها وأنا طفل صغير. لم أغتصب فتاة ولم أقتل احداً، لم أقطع شجرة ولم أذبح شاة ولا بعيراً، ولم أعتد على إنسان قريب أو بعيد في هذا العالم. لستُ متديناً، ولا أدخل المعابد، لكن في قلبي صلاة أبدية سرمدية عمرها من عمر هذه الأرض، تجعلني أخاف "الله" الذي لا أعرفه، وما زلت أبحث عنه، في حين أنكّ لا تخاف "ربّك" الذي تعرفه، أو "الله" الذي تدّعي أنك تعرفه، وتأتمر بأوامره!

هنا يبدو الفارق بيني وبينكَ يا بغدادي. أنتَ تقول إنكَ عرفت "الله" ثم أراكَ تقتل باسمه، في حين أنا أعترف بأنني لا أزال أبحث عن "الله" ولا أقتل. فمن هو الكافر الجاحد بيننا إذاً؟!

> **أنتَ قائدنا الطاهر الظافر القاهر يا أبا بكر. أرسلتكَ السماء لتعيد إلى الأمة مجدها، وتطهّر الأرض ممّن دنّسوا دينها، وعابوا حرمتها، وسفّهوا أحلامها. اقتل السنّة الذين لا يرون رأيكَ، يا خليفة المؤمنين. اقتل الشيعة الكفرة. أضرم النار في مساجدهم ومراقد أئمتهم، ولا تنس وأنتَ على دروب الجهاد، أن تفعل بالنصارى ما تفعله بالروافض. حطِّمْ كنائسهم، وأديرتهم، وصلبانهم، وأيقوناتهم. أحرقْ أناجيلهم وأعمال رسلهم، وبعثِرْها في العراء**

لم أعد أذكر اسم الحكيم الذي سئل مرةً عما إذا كان يؤمن بالله، فقال: "أؤمن بالله الذي خلقني، ولا أؤمن بالله الذي خلقه البشر". نعم أيها الخليفة الذي سمّيتَ نفسكَ بغدادياً وبغداد منك براء. أنتَ لا تؤمن بـ"الله" الذي "خلق" الناس، بل تؤمن بإله خلقتَه أنتَ؛ إله من صنعكَ، يجعلكَ تقتل الناس، وتدمّر بيوتهم وتدوس حرماتهم. أما الإله الآخر، الواحد الصمد، إله المؤمنين الأخيار، فهيهات، ثم هيهات لكَ أن تعرفه، أو تحسّه في قلبكَ وعقلكَ، لأنه إله خير يمحو ما اقترفته يداكَ من آثام، وينتصر عليك وعلى مَن حولك، ويلفظكم جميعاً، كما تلفظ أنتَ نواة زيتونة تأكلها.

علامَ التغطرس يا بغدادي، وأنت ضعيف، لا تستقوي إلا على الآمنين من بشر عزّل؟ تغزو باسم الدين، مدنهم وقراهم ودساكرهم،

تسرق أموالهم وحليهم وأحلامهم وذاكرتهم، وتطردهم من بيوتهم، لترفع عليها رايات أمجادكَ. أهذا هو الإسلام الذي تريد أن تذيعه في الناس؟! أيّ إسلام هذا، الذي به تقتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال والعجزة؟

أنتَ ضعيفٌ وجاهل يا بغدادي، والناس الذين غررتَ بهم سيكتشفون عاجلاً أم آجلاً أغراضكَ المشبوهة. أنتَ جاهلٌ للقرآن، وتقرأ الحديث بعين واحدة، وأتحدّاكَ أن تستخرج من "الكتاب" آية واحدة، آية واحدة با بغدادي، تبرّر لكَ الجرائم التي اقترفتْها يداكَ في العراق والشام. إذا قلت لي إنكَ تجد تبريراً لما تفعل في الحديث ومن السيرة، فسأقول لك إني لا أعتدّ بالسيرة التي كتبت بأخرة، ولا آخذ منها إلا ما يتوافق مع القرآن.

إذا قلتَ لي إنكَ لستَ راضياً عن الأنظمة العربية لأنها فاسدة، فكل عربي حرّ يقف إلى جانبكَ ويؤيد كلامكَ، لكن ما تفعله يا بغدادي يصبّ في خدمة هذه الأنظمة التي "تدّعي" أنكَ تعمل للقضاء عليها، بل تجعل الناس يترحمون عليها متى سقطت، لأن ما تقدمه صورة للدين لا شيء فيها من الإيمان، صورة لا يرتضيها المؤمن والمسلم العاقل، وينفر منها من ليس مسلماً.

أتريد أن تقول لنا إن النظام العربي الذي تدّعي محاربته ليس مرتاحاً لوجودك؟! صدّقني إنكَ "على قلبه مثل العسل"، وكل قطرة دم تقطر من حرابكَ تصبّ في خدمته، وكل غزوة تقوم بها لمصلحته، والكثيرون بدأوا يشكّون في نيّاتكَ، ويقولون إنك صنيعة هذه الأنظمة، مثلما يقال عن هذه الأنظمة إنها من صنع الاستعمار!

ومن ثَمّ فأنتَ ضعيف يفتك بضعفاء، وبسلاح ليس من صنعكَ؛ سلاح صدّرته لكَ "دول قوية" لا يعجبكَ نظامها، لكنها تملك منه أضعاف ما تملك، وتملك ما هو أشدّ منه وأمضى، وفي مقدورها إن هي استخدمته، أن تقضي عليكَ وعلى من حولكَ في لحظات.

لو أن هذه الدول عادت إلى جاهليتها كما أنتَ تفعل، وتخلّت عن أنظمتها الديموقراطية، وظهر فيها مستبدّون مثلكَ، عقلهم مثل عقلكَ، وروحهم مثل روحكَ، ومزاجهم مثل مزاجكَ، وشياطينهم مثل شيطانكَ، ما تراها سوف تفعل بكَ، لو تعصبت هذه الدول دينياً عليكَ كما تتعصب أنتَ دينياً على الناس؟ أتشكّك في قدرتها على تدميركَ، وتدمير مَن معكَ في لحظات، وتجعلكم جميعاً كعصف مأكول؟!

إحمد "ربّك" أن روسيا لم تصبح "أرثوذكسية هدامة" والولايات المتحدة "بروتستانتية هدامة" وفرنسا "كاثوليكية هدامة"! هب هذه الدول صارت مثلكَ، "دينية هدامة" هل ستواجهها بهذا الرشاش الذي بين يديكَ، الذي هو أصلاً ليس من صنعكَ، أو بهذا الصاروخ الذي اختلستَه من المخازن، أو صَدِّر إليكَ لتنفذ مؤامرة مرسومة وضعها أشرار مثلكَ، لكنهم أدهى منكَ بما لا يقاس. إن بلادك كلها لم تستطع حتى الآن أن تنجو "من اليهودية الهدامة"، فكيف إذا أصبحت روسيا دينية هدامة، وأميركا دينية هدامة؟!

أما اليهود، أبناء عمّنا إسحق، من جدّنا إبرهيم وزوجته ساراي، فدعهم وشأنهم، لأن لا حيلة لكَ ولنا عليهم! اصفحْ لهم عدوانهم، واغفرْ لهم خطاياهم في غزة وغير غزة، فهم أخوةٌ لنا في الدين، موحّدون مثلنا، لا يعتقدون بالتثليث، ولا يؤمنون بمسيح مصلوب، ويختنون أبناءهم كما نختن نحن أبناءنا، وهم مثلنا لا يأكلون لحم الخنزير، ويدعون إلى دولة يهودية، كما ندعو نحن إلى دولة إسلامية!

لكنْ، أطمئنكَ من الآن يا بغدادي، إلى أن هذه "الدول القوية الجبارة" لن تتعصب عليكَ كما تتعصب أنتَ على من لا يدينون بدينكَ، لأن ما تفعله يداكَ هو في مصلحة جيوبها، وهذا شيء لا أظنّكَ تعرفه، أو أنكَ تعرفه، لكنكَ لا تبوح به لمريديكَ حتى لا تفلت من يدك عصا الراعي. أنتَ ملحد من غير أن تدري، متعطش للدماء يا بغدادي، كافر تسعى "لتشتري بآيات الله ثمناً قليلاً"!

مهما يكن، سأفصح لك عن السبب الذي يجعلكَ بمأمن من تلك "الدول القوية الجبارة" على أمل أن ترتدع. إنه النظام في تلك الدول، النظام الديموقراطي الذي لا يعجبكَ، لكنه يحول دون ظهور قادة مجانين بيدهم مقاليد السلطة كلها، لذلك أنصح لك أن تسعى ما وسعكَ الجهد، لتحافظ عليه، وتسعى لنشر ثقافته في بلادكَ. سمِّه نظام الشورى إن أحببتَ. خذ أساسه من القرآن ومن الحديث إن أحببتَ، واطلقْ عليه الاسم الذي تريد.

المهم أن تفهم روحه، لأنه النظام الوحيد الذي يحميكَ من أظفار تلك الدول، ويحمي بلادكَ من ثقافة الفكر الواحد والزعيم الواحد، ومن قادة مستبدّين يأتون إلينا في غفلة من الزمن، فيحتكرون السلطة، ويجرّون بلادهم وشعوبهم إلى المجهول!

لا تقل "الله يحميني إذا حاربتني هذه الدول القوية وانقضّت عليَّ انقضاض الأسد على الفريسة". أنتَ لست عبد المطلب (جد الرسول) حتى يرسل "الله" إليك طيراً أبابيل لتحميك، و"الله" لا يعمل عندكَ لتطلب منه ما تشاء (لا تجرّب الرب إلهك)، و"الله" لا يحمي المتديّن الأرعن، ولا "ضعيف الإيمان"، وأنتَ ضعيف الإيمان يا بغدادي، مسكون بشياطين الغرائز والنزوات، غرائز الحقد ونزوات الكراهية التي تعانيها بلادنا أشد المعاناة، وتجعلها ضعيفة أسيرة، ومحرومة من نور الحياة.

صدِّقني يا بغدادي إذا قلتُ لكَ إن الأنظمة التي في هذه "الدول القوية الجبارة" هي التي حمتكَ حتى الآن، ولا تزال تحميكَ من أظفارها الحادة. فلا تقم بعمل يُظهر أظفارها بحجة الدفاع عن الإسلام. القرآن يقول "لا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا"، أي ما معناه حاذر أن تكون مختالاً مزهواً، واعمل بقول الشاعر القائل "جانب السلطان واحذر بطشه/ لا تعاند من إذا قال فعل".

إقرأ سيرة غاندي، وتعلّمْ كيف ينتصر اللاعنف على العنف. عدْ إلى "كليلة ودمنة" واقرأ فيه قول ابن المقفع "الريح العاتية تكسر القوي من الشجر، لكنها لا تقدر على صغار الحشيش"! كن كصغار الحشيش، حتى يرحمكَ "الله" الذي هو في القرآن "أرحم الراحمين"، ولا تكن "فظاً غليظ القلب"، وإلا انفضّ الناس من حولكَ.

لا تعاندْ وتذهب في غيّكَ كل مذهب. ولا تقلّد شيئاً لم يوجد، وتصطنع حدثاً لم يحدث، فالإسلام لم ينتشر ويسّد بحدّ السيف كما تقول الكتب، وكما دوّن بعض المؤرخين وتوهّم الكثيرون من الناس، وما كُتب عن الغزوات والفتوحات وَضع للتسلية، ومعظمه باطل. الإسلام "الحق" انتشر بالسعي والهجرة، وحرارة الإيمان والقلوب المفعمة خيراً. لا أقولها لأدفع عن الإسلام بطريقة الغلاة والمتنطعين والمتحزبين، ولا تأخذني في الأمر حميّة من أيّ نوع، بل أقولها لأنها حقيقة تاريخية أقرّها مصنفون. هذه المسألة موضوع لا مجال لبحثه الآن على كل حال، ولا أظنّ صدركَ يتسع لها. هي "قصة أخرى" كما يقول الغربيون في أحاديثهم.

■■■

قد هالني وأذهلني ما رأيتُ منكَ، حين شاهدتُكَ للمرة الأولى على الشاشة يا بغدادي. سمعتكَ تخطب وأنتَ على المنبر، ومَن حولكَ صامت ساكن مستكين. أجدتَ، وكان كلامكَ سليماً ولم تلحن. ظنّ الناس أنكَ ارتجلتَ خطابكَ، أما أنا فما أظنّكَ إلا تدرّبتَ عليه قبل أن تذيعه في الناس!

عرفتُ ذلك من طريقة إلقائك. كنتَ تدري من البداءة، أن الشاشة ستنقل كلامكَ إلى الشيوع، فرفعتَ المرفوع، ونصبتَ المنصوب، وكسرتَ ما يجب أن يُكسَر، وكنتَ في ذلك مجيداً حقاً. أما السكون، فلم يكن لها محلّ في كلامك، واكتفيتَ بسكون الناس من حولكَ!

أخالكَ تحبّ السكون هذه، أليس كذلك؟ السكون عندكَ ناس تسكت وتسمع وتستكين، أما معلّمنا الذي علّمنا العربية فكان ينهانا عنها، ويقول لنا إنها عكّاز العاجز، ويحضّنا على الضمّ والفتح والكسر، لتصبح لغتنا سليمة لا تشوبها شائبة.

الآن، وقد مر وقت طويل، صرت أفهم علاقة "الإعراب" بين هذه السكون، وسكون الرعية يا بغدادي. أما الحركات الأخرى، من الضمّ والفتح والكسر، فتريدها أسلحة خاصة، تضمّ بها وتفتح وتكسر، وفي ظنّكَ أن السماء هيّأتها لكَ لترفع بها راية الإسلام وتنصره على أعدائه، أو تنصر أعداءه عليه. "والله أعلم بالسرائر"!

كان معلّمنا مختلفاً عنك كلّ الاختلاف، خلوقاً مؤدباً، نحيلاً، فيه شبه من بدر شاكر السياب. كان يريدنا أحراراً، لا أتباعاً، وكان يعلّمنا الفتح والضمّ الكسر، لا لنضمّ ما ليس لنا، ونفتح أرضاً ليست أرضنا، ونكسر أبواب منازل ليست منازلنا، بل لنتأدب ونتهذب، ولنفهم الكتاب كما يجب أن يفهم، ونناجي "الله" بأرقّ الكلام وأعذبه.

علّمنا كيف نفتح النوافذ لنطل منها على العالم، ونحلّق مع النسور في الإعالي، لنكتب النثر النضر، والقصائد الحميمة البعيدة عن التكلف، وندوّن في قلوبنا، رسائل الحب والعشق والوجد والحنين.

بئس هذا الزمن الذي صرتَ فيه خليفة على مَن تدّعي أنهم مسلمون يا بغدادي، ورحمة من "الله" واسعة، على مَن كانوا معلّمينا، وعلى زمانهم ذاك، الأخضر والجميل.

علامَ التغطرس يا بغدادي، وأنت ضعيف، لا تستقوي إلا على الآمنين من بشر عزّل؟ تغزو باسم الدين، مدنهم وقراهم ودساكرهم، تسرق أموالهم وحليهم وأحلامهم وذاكرتهم، وتطردهم من بيوتهم، لترفع عليها رايات أمجادكَ. أهذا هو الإسلام الذي تريد أن تذيعه في الناس؟! أيّ إسلام هذا، الذي به تقتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال والعجزة؟

اللوحات لمنصور الهبر.

أنتَ ضعيفٌ وجاهل با بغدادي، والناس الذين غرّرتَ بهم سيكتشفون عاجلاً أم آجلاً أغراضكَ المشبوهة. أنتَ جاهلٌ للقرآن، وتقرأ الحديث بعين واحدة، وأتحدّاكَ أن تستخرج من "الكتاب" آية واحدة، آية واحدة با بغدادي، تبرّر لكَ الجرائم التي اقترفتْها يداكَ في العراق والشام. إذا قلت لي إنكَ تجد تبريراً لما تفعل في الحديث ومن السيرة، فسأقول لك إني لا أعتدّ بالسيرة التي كتبت بأخرة، ولا آخذ منها إلا ما يتوافق مع القرآن

قراءة

ابرهيم اليوسف

معجم حياة "داعش" الداخلية

لا يمكن النظر إلى ظهور الجنين القزم الوليد، "داعش"، الذي يشبه كائنات الأفلام السحرية، على أنه نتاج تراكم الثقافة الظلامية عبر قرون. لا يصحّ هذا النظر، بعد توافر أدوات أخرى كثيرة، في مطلعها كبسولة الحقد ذي الرؤوس العديدة، من طرفين رئيسيين؛ أحدهما البطانة المستفيدة من نظام البعث بزمرتيه المتناقضتين في سوريا والعراق؛ وثانيهما هؤلاء المهمشون المسحوقون الذين استشعروا الغبن التاريخي، ولم يجدوا أمامهم من حلول سوى أن يكونوا حاضنة حثالات التاريخ والجغرافيا، المستقدمين من بلدان عربية، وإسلامية، بل وعواصم غربية، بعد تهيئة المناخات اللازمة لاستشراء حضورهم، وتسهيل الطريق لهم، لأغراض عديدة.

لقد كان واضحاً الوضوح كله، أن هذا الوباء الداعشي، ما كان له أن يصل إلى المرحلة التي وصل إليها الآن، لولا إعداد التراب المناسب له، في الفضاء السوري، حيث أدى هؤلاء التكفيريون خدمات كبرى للنظام السوري، عبر ضرب المعارضة، واستجرارها، في ظل سقوط أغلب من كانوا قيادات الصف الأول في واجهاتها، وتهافتهم من أجل مصالحهم الخاصة. لقد تمت مؤازرة النظام في تبني هؤلاء الإرهابيين من جهات ودول إقليمية، وعربية، وغربية، من دون أن يعلموا أن من يربّي الإرهاب إنما يربّي قاتله، مثله في ذلك مثل من يؤوي الأفعى الجريحة، أو الأفعى البردانة، الموشكة على الموت، فيوفر لها الدفء في حضنه، ليكون أول ضحية لها، ما إن تتخلص من أزمتها، وتعود إليها حيويتها.

يحار المرء، وهو يوثق الفظائع والأهوال التي يرتكبها مَن ينتمي إلى "داعش"، من المجرمين، الشذاذ، ممّن لا قيم لديهم، ولا أخلاق، وباتوا يتوارون خلف النص القرآني، على أنه مرجعهم الرئيس، عبر القراءة الانتقائية، الصارمة، يوقفون دورة التاريخ، بعدما قطعت مسيرتها، ليس فقط أكثر من ألف وأربعمئة سنة، وإنما ألوف السنين، ليظهروا الوجه البشع لإعمال حد السيف، وليجزّوا الرؤوس، يكوّمونها كأنها بيادر القرع أو البطيخ الأحمر، بحيث يسوّرون مقارهم ومكاتبهم التي يقيمون فيها بأشلاء الأجساد والجماجم، سواء أكان ذلك بعد محاكم هزلية أم من دونها، وهذا ما يشكل عودة لدورة التاريخ إلى أحط محطة على الإطلاق.

يؤسس هذا التنظيم الإرهابي نفسه، وهو أحد نسخ "القاعدة"، على دورة العنف، في حدّها ما بعد الأسطوري، وما بعد الخرافي. ليس أدل على ذلك من سلسلة الأعمال التي لا يليق بها أي وصف من معجم القذارة. من بينها ما واجهوا به مسيحيي الموصل، خلال الأيام الماضية، بعد قصف كنيسة المطرانية التي بنيت قبل أكثر من ألف وثمانمئة سنة، أي قبل أكثر من أربعمئة سنة من ظهور الإسلام الذي تفهّمها، وتفهّم أهلها، وإن على طريقته الناقصة، بمن فيهم الحجاج بن يوسف الثقفي (660-714) نفسه.

ليس بعيداً من قصف هذه الكنيسة، وثلاثين كنيسة أخرى في هذا المكان، ما جرى مع كنائس الرقة من قبل، حيث تم تحطيم أسد شيران في حديقة شيران الذي جلبه محافظ الرقة، في ثمانينات القرن الماضي، من قرية شيران التي بدأت أعمال الحفر فيها في العام 1929، وتم العثور على عدد من التماثيل التي تعود إلى 727-744 قبل الميلاد، وهو ما يعني بجلاء إصرار هؤلاء على نسف الذاكرة البشرية، ونسف الحضارة الإنسانية التي تعاقبت على بنائها أجيال هائلة. وهي روح عدمية، ما بعد وحشية.

واضحٌ أن "داعش" يستهدف مَن يصنّفون ضمن إطار الأقليات، وهم سكان المنطقة الأصليون. لذا توجهت أنظار مقاتليه إلى منطقة كوباني الكردية التي يلقنهم أبناؤها الدروس في البطولة، ويلحقون بهم الهزيمة تلو الأخرى، رغم توافر أسلحتهم الحديثة، والمتطورة التي حصلوا عليها من طريق حكومتي بغداد، ودمشق. فالبرازية، من أهل كوباني، هم من المقاتلين الأشداء الذين يرفضون تفريغ مناطقهم، بعدما أقدم "داعش" على إفراغ مناطق تل أبيض وتل حاصل وتل عرن، وها هم توجهوا إلى الحسكة، ضمن مخططهم للوصول إلى قامشلو ووضع اليد على حقول نفط الرميلان، كما الجبسة ودير الزور.

المضحك المبكي من مثل تحجيب المانيكانات

تناقلت شبكة التواصل الاجتماعي ما سمّاه النشطاء بـ"النهفات" الساخرة، وهي من النوع المضحك المبكي. من عدادها فرض الحجاب على "المانيكانات". الأغرب، المطالبة بتغطية ضروع البقر، بدعوى أنها تنشر الفتنة، بل التمهيد لختان النساء، وغيرها من الأفكار الإبليسية، الغبية، التي تصدر عن "عبقريات" بعضهم، ولا سيما أنهم باتوا، وهم يسيرون تحت سطوة الحقد الأسود الذي يتقطر من أرواحهم، ورؤاهم، يتخبطون في أحكامهم. هددوا مسيحيي الموصل بأحد الخيارات الثلاثة: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الهجرة، مجرّدين إلا من ثيابهم التي يرتدونها. وهذه من سلسلة المظالم الكبرى في حق الديانة المسيحية، التي هي إحدى محطات الحضارة في هذه المنطقة، والعالم.

راح خيال بعضهم ينسج طرائف ساخرة عن "الداعشيين"، إلى حد الأسطرة والخرافة. كتلك الفتوى التي انتشر خبرها حيث صورة "داعشي" إلى جانبه نص فتوى مضمونها أن تناول شاب وشابة الآيس كريم معاً، يجعلها أخته في الرضاع، انطلاقاً من فكرة أن في هذا النوع من المثلجات مادة الحليب. إضافة إلى سرقاتهم التي يقومون بها، ومنها حفرياتهم في مناطق الآثار، وغزو متاحف الرقة والموصل ومعابدهما. وعرف عنهم أنهم رجموا امرأة لمجرد أن لها صفحة على الـ"فايسبوك"، بل قطعوا أيدي بعضهم بتهمة السرقة، أو قطعوا السبابات والوسطى لبعضهم الآخر لأنهم مدخنون، ما خلا الجلد بسبب الإفطار في رمضان، أو عدم غلق المحلات، أو المرور في الشارع بعيد أذان الصلاة، ولو كان صاحب المحل أو عابر الطريق غير مسلمين.

يأتي فرز "داعش" للبيوت في الموصل أقساماً، من خلال رموز وإشارات مكونة من حروف مختلفة. حرف النون على بيوت المسيحيين، باعتبارهم نصارى. حرف الراء على بيوت الشيعة باعتبارهم رافضة. في الوقت الذي يتم تهديد الكرد، وهم يشكلون نسبة كبرى من عدد سكان ثاني مدينة عراقية، بعد بغداد، حيث تم بحسب الأنباء الواردة إنذارهم بمكبرات الصوت بمغادرة المدينة.

يروي أحد الهاربين من براثن "داعش"، أن الالتحاء والتزيي بمظهر "المجاهد" الورع، ليسا معتمدين وسط التنظيم، بل هناك أمراء يتملصون من الصلوات الخمس، وثمة من يحتسي من بينهم الخمرة، أو يتعاطى الكيف، ناهيك بحياة الدعارة المفتوحة التي يعيشها كثيرون منهم. ويتحدث الراوي نفسه عن مشاعية المرأة في ما بينهم، إذ يتهافت أعداد منهم على الواحدة التي تقع في شباكهم، فينالون منها الوطر بحيوانية، ناهيك باستفحال اللواط في صفوفهم. وهناك من يتم اعتقاله، أو حتى إعدامه من الملتحقين بهم، عندما يَشكّ في أمره، أو نتيجة نميمة ضده. كما أنهم يطلبون ممن يلتحقون بهم من أبناء كل منطقة يصلون إليها، أن يرفدوهم بالمعلومات عن الشخصيات البارزة المناوئة لهم، بالإضافة إلى تكليف بعضهم تدبير زواجات المناكحة، لقاء المال، أو تحت طائلة إغراء أو تهديد ذوي من يقع عليها الاختيار. بل إن أغلب زيجاتهم تأتي من الأوساط التي كانت تتعامل في ما سبق مع النظام، ويتم توجيه اتهامات إليهم، لا تحل من دون فرض مثل هذا الزواج على أولياء الضحية. وهناك مئات المترملات اللواتي وقعن فريسة هؤلاء الجلاوزة المرضى جنسياً.

مما يقدمه هذا اللائذ بالفرار في شهادته أن هناك جهلة غُرِّر بهم، باسم الإسلام، وإن هؤلاء يلوذون بالفرار، متى أوتيت لهم الفرصة المناسبة. بيد أنه يتم تهديد أهليهم، بعيد عرض أشرطة الفيديو التي تصور أعمالهم الإرهابية في حق الأبرياء. بل ينفذون حكم الإعدام، أمام أعين جميعهم، حتى في حق من يضلّ الطريق، سهواً، لبثّ الترويع في النفوس، وضمان منع هرب أحد من بينهم، للحؤول دون إفشاء أسرارهم. أغرب ما في هذه الشهادة أن راويها يؤكد أن خمسة وتسعين في المئة، من "داعش" مهووسون جنسياً، وغير أسوياء.

إن رصد انتهاكات "داعش"، وجرائمه، وشذوذ آرائه، وتناقضاته، يحتاج حقاً إلى جيش من الباحثين والدارسين، ليتناولوا ما يرتكبه أفراد التنظيم، أمام أعين العالم، وعبر الإعلام المفتوح، بعد أن لجأوا إليه، يستخدمونه، لاستكمال رسالتهم في الترويع والإرهاب. ولا عجب أن ينصرف كبار المفكرين في العالم لاستقراء طفرة "داعش" التي ظهرت على مسرح الشرق الأوسط، بل العالم، عبر زمن قصير، إذ لا يستطيع أي جيش عرمرم في الكرة الأرضية أن يؤدي مثل هذه المهمات. هذا يدل على أن هناك تواطؤاً فعلياً مع "داعش" في المنطقة، لا سيما هؤلاء الذين أرادوا استخدامهم، بشكل عابر، من دون أن يدركوا حقيقة أن من يحتضن الإرهاب، أو يربّيه، بشكل تكتيكي، يكون هو الضحية التي يمحقها الإرهاب، بشكل استراتيجي.

لا أحد غير مطلوب عند "داعش"، مما يفرض على من استبعث هذا التنظيم، واختلقه، ورعاه، من الدول الكبرى، أن يعيد النظر في ما أقدم عليه. مهمة استئصال خلايا "الداعشيين" المفعلة، والنائمة، وتحجيمها، يجب أن تكون على سلم أولويات الدول الكبرى المتهمة بوصول سوريا، والمنطقة، إلى هذا الدرك من التهالك، ولا سيما أن البيئة الحاضنة لهؤلاء موجودة حتى في عمق الغرب نفسه. لا منجاة لأحد، من دون التكاتف لمواجهة خطرهم المحدق، الذي خرج عن حدود جهاز الاختبار الأممي، بعدما تحولت المواد الكيميائية المشكّلة له إلى كائنات تكاد تحرق العالم. كل العالم!

قراءة

محمد ثامر يوسف

خيالٌ عراقي عن السجن

لا يمكن قراءة تفصيلات العنف الحالي في العراق من دون إعادة التأمل في ظاهرة "السجن" العراقي نفسه ما بعد عام التغيير، بوصفها ظاهرة لها علاقات متعددة تتشابك مع نمو مستويات العنف والفوضى وتصاعد مديات الإرهاب بصورته الحاصلة الآن، وهي صورة تقترب من حدود الخرافة وتبزّ كلّ صورة مقاربة لها في أيّ مكان آخر.

ان أكثر فكرة طاشت في عراق ما بعد 2003 هي فكرة السجن، لا أعني بالضرورة السجن في معناه المتعارف عليه وما فيه: معتقلون، شرطة، عزلة، ذكريات، وما الى ذلك، إنما أعني السجن العراقي الهشّ الذي بَني بعد ذلك التاريخ بمعناه السهل والعادي والخطر أيضاً. في عبارة أخرى، السجن بمعناه اللامخيف. لعل الحديث الدائم عن كثرة الداخلين الى هذا المكان بسهولة والخارجين منه بسهولة أشد، تختزل ما أريد قوله عن السجن الذي أنا في صدده، أعني السجن المبني واللامبني في آن واحد.

أعيد تدوين أفكار ما عن "سجننا" سريعاً لمناسبة حتّمتها لحظة ظهور "الخليفة" أبي بكر البغدادي العلنية، أشهر سجين سابق معاند يمكن اعتباره نموذجاً لهذا الكلام، أحد عتاة من ضمّهم يوماً السجن العراقي بصيغته التي أتحدث عنها هنا: رجل محكوم بتهم إرهاب وبأشنع الجرائم، فيما هو يلعب ويحكم ويتحكم في السجن بمزاجه، بل ويتوقع خروجه منه في كل لحظة. وهذا ما كان. أتحدث أيضاً عن لحظة مقطوعة من وقت "ديموقراطي" مغشوش وطويل أسس له الأميركان بجهالة وصفّق له عراقيون قاصرون بغباء أشدّ، وفي ظنّهم أنهم سيحمون الناس ويؤمّنون حياتهم، فالمطلوب رقم واحد اليوم، كان كما يروى عنه، انشغل بجهد نفسه ليهندس لـ"داعش" من هناك ويطوّر على كيفه فكرة اختمرت في ما بعد، ابتداء من داخل مكانه المريح هذا: من السجن لا غيره.

البغدادي الذي يقود اليوم جيشاً كبيراً من الإرهابيين ويمتلك أموالاً ضخمة، فضلاً عن أسلحة كثيرة، هو نفسه الذي أمضى أكثر من أربعة أعوام في "سجن بوكا" في البصرة جنوب العراق، حالماً بطرق أخرى واستراتيجيات تلائمه مختلفة تماماً عما كان سبقه فيها غيره، الخارج كما المئات من أتباعه من هذه السجون المشة، مرةً من بوكا

> **البغدادي الذي يقود اليوم جيشاً كبيراً من الإرهابيين ويمتلك أموالاً ضخمة، فضلاً عن أسلحة كثيرة، هو نفسه الذي أمضى أكثر من أربعة أعوام في "سجن بوكا" في البصرة جنوب العراق، حالماً بطرق أخرى واستراتيجيات تلائمه مختلفة تماماً عما كان سبقه فيها غيره**

خروجاً "رسمياً" سهلاً وغريباً، كما خرج هو من حيث كان، ومرات "بالنسبة لمؤازريه وانصاره" بالهروبات الكبيرة المتكررة من "أبو غريب" ومن "التاجي" و"تكريت" وغيرهما، بالقوة والتخطيط أحياناً، وأحياناً أخرى بدفع الرشى الضخمة لضبّاط وسجّانين. أمرّ مثل هذا، ظل يحدث دائماً في مخافر الشرطة وصولاً إلى أكبر السجون وأكثرها مناعة، كما حدث مثلاً في أقرب فضيحة من هذا النوع، هروب نحو 600 معتقل خطير بالقاعدة من "سجن أبو غريب" قبل أقل من عام، لعل أكثرهم الآن هم عماد دولة البغدادي الجديدة.

قصدي، أن هذا الحيّز القابض لم يعد يؤتمن عليه وخصوصا نحن نتحدث عن تبدل ثقافة السجن الى هذه الدرجة. أو في عبارة اخرى عن طبيعة العلاقة السياسية والاجتماعية الحاصلة مع السجون والمسجونين على رغم الظروف الدراماتيكية الخطيرة التي يعيشها معظم العراقيين بسببها، وقد تحولت هذه، ليس بوصفها أمكنة للاحتجاز، انما لأشياء أخرى كلها تقع خارج النسق المتعارف عليه والمفهوم للعقوبة والأمان المفترض بالنسبة إلى الآخرين.

يمكن أيضا تسمية هذا المكان سجناً مجازاً، لكن في تعسف فريد لاستخدام المصطلح وفق السائد العراقي فقط للدلالة أو التساؤل عن ماهيته الجديدة ووظيفته بالضبط. على سبيل المثال، كيف تأسس وكيف حددت تفاصيله؟ كم يلبّي خيالاً رسمياً مسؤولاً يريد أن يعادل أصحابه الكفة ويصلحوا الموازين وقد ساحت فكرة هذا العنف في كل شيء بل وحتى اخترقت السجون بوصفها حامية ومؤتمنة، فتحولت من كونها مكاناً لاحتواء أفراد أشرار مجسدين مقابل حراس كسالى لامبالين أو مرتشين، هم المرادف الآخر للشر نفسه، الى حصون/ سجون مخيفة بذاتها يُتوقع منها الخطر في كل لحظة. لكن كيف يطير إرهاب المسجونين والسجّانين معاً بلا اسم في الهواء، وكيف يمكن هذا الحيّز المصنوع من جدران ولاجدران أن يفعل؟ بمعنى أوضح، كيف يؤمّن المرء الذي خارج السجن على حياته منه؟ مَن يحميه في دولة حائرة تماماً، مرتبكة، أو حتى متواطئة، وقد ازدحمت خصوصاً بالنوعين معاً؟ أقصد مَن يميز مجرما عن ثائر/ قاتل/ متمرد؟ هل تكفي السجون فعلاً كي تفرّق بين الاثنين في بلاد مثل العراق، لكليهما (المجرم والثائر) فيها جمهور ومريدون وأتباع؟ وإلا لماذا اذاً لم تهدأ الحال أو تستقر هنا على رغم كثرة السجون والسجّانين؟

يندرج السجين العراقي العادي "غير الارهابي" في الغالب (مع أنه قد لا يسعده ذلك لو كان مظلوماً)، تحت لافتة طائفته وانحيازها له، أو قوة دفاع هذا الحزب أو ذاك التيار السياسي عنه، ليس بوصفه مواطناً مغبون الحق، أنما بكونه تابعاً حزبياً، أو منتمياً طائفياً. هكذا يمكن أن يتعدد السجّان كذلك، وينقسم حسب رؤيته لسجينه عقائدياً أو طائفياً أو سياسياً.

درجت تيارات سياسية وأحزاب عراقية على الدفاع عن معتقلين ما، حسب درجة ولائهم لها أو انتمائهم الطائفي المحدد في كل مرة كانت تقوم فيها بحملة لإطلاقهم، فيما يخمد على كمد آخرين لا يندرجون تحت عنوان. بالطبع من حق كل جهة الدفاع عن أتباعها، على اعتبار أن لكل طائفة سياسية أو كتلة مشاركة، "معتقليها الأبرياء" وتريد إطلاقهم، وهي طريقة شائعة تنبّه المتابع المحايد الى ما أشرت اليه، أي الى كيف ينقسم العراقي المعتقل تبعاً لانقسام المجتمع السياسي الذي يطالب بـ"ابريائه" الخاصين، بعيداً عن وجهة نظر الحق العام أو القضاء. ويمكن تخيل الموضوع باستمرار على هذا النحو.

في هذه المسألة "المحاصصاتية" ثمة العديد من المعاني المحفزة التي يمكن إدراجها تحت هذا الوصف، أو قراءتها هكذا، بصرف النظر عما هو عدد الأبرياء في السجون، وكم من المظلومين يقبعون فيها. هكذا ظلت النظرة إلى السجين محكومة للأسف بحتمية انقسام المجتمع السياسي نفسه ونظرته إلى قضية المعتقلين التي لم يجر حلّها تماما، وخصوصا أنها كانت إحدى أوراق المساومات السياسية قبل أن يقلب تنظيم "داعش" الطاولة في وجه الجميع، كلهم، ويقوم بطريقته الخاصة بالفرز، على الأقل في المناطق التي سيطر عليها أخيراً. يمكن أيضا ضم قوة التأثيرات العشائرية والدينية المختلفة التي ظلّت تضغط في هذا الاتجاه لصالح هذا أو ذاك.

أكثر من "أبي غريب"

تعلق صحيفة "لوس أنجليس تايمس"، على الحيرة العراقية التي كان سببها تنظيم "داعش" قبل أشهر من سقوط الموصل وجعل الحكومة تقوم بنقل سجناء "أبي غريب" الى مكان آخر تحسباً لعمليات قد ينفذها التنظيم مرةً اخرى على السجن العتيد، فتقول في هذه المناسبة وفي ما يشبه الاستعادة والشعور بالذنب: "قبل عشر سنين، تعهد الرئيس الامريكي جورج بوش بأن الولايات المتحدة ستهدم سجن أبو غريب كرمز مناسب لبداية عراق جديد، لكن بعد كل تلك السنوات، مَن منا كان يتوقع أن السجن سيبقى بالصورة نفسها، وأنه سيحتاج إلى مزيد من التعزيز، بل ان الامن المنفلت بشدة والفساد سيتطلبان في ما يبدو أكثر من أبي غريب واحد".

في كل الاحوال، ظلّ السجن فعلا، والعراق "الجديد" نفسه الذي لم يبدأ خطواته الاولى حتى الآن على رغم كل هذه السنوات، بدا كأنه يراوح في مكانه كما كان؛ حقيقة فرضتها النيات السياسية والتخبطات كما الأعداد الكبيرة من المتهمين أو من المقبوض عليهم من الإرهابيين وغير الإرهابيين. أعني أن رمزية السجن التي كان اكتسبها منذ عهد صدام، ثم مع وجود الأميركان هنا، الى يومنا هذا، رمزية ساحت، لكن بطريقة أخرى اكثر صدمة. فالسجن صار في عبارة أخرى يتوزع، كأنه بات يتوالد لأبي غريبات عديدة تتفق مع انفلات كل شيء في البلاد: الأمن، وهروبات المدانين المتكررة دائماً وبسهولة من السجون. هذه تفاصيل قد تكون أكثر دراماتيكية من الذكرى التي حملها هذا السجن يوماً، وهي تفاصيل متشعبة أوجبها المناخ العام الفائر والقلق الذي تعيشه البلاد، إلى درجة لا يشعر فيها أحد بمأمن حتى بوجود سجن عراقي بهذه الصيغة؛ سجن لم يعد درساً للقابعين فيه، فضلاً عن عدم قدرته نفسه على الاحتفاظ بالمدانين داخل أسواره، أو المتورطين، أو الذي يستحقون البقاء، والخشية منهم بالذات، إنما الخوف يمتد أيضاً من حماته وحرّاسه كذلك. ففي ظل استشراء الفساد وتنامي التخبط الرسمي، تظل كل الاسئلة معلقة. أسئلة من بينها ما يتمحور حول عدم قدرة هذه "الدولة" حتى على تأمين سجن طبيعي تخيله يوماً الاميركيون في ما يشبه الحلم، أو على الأقل فكروا في اعادة تأهيله، أو بنائه بطريقة ملائمة وليس الغاءه دفعة واحدة كما قال أحدهم وهو يحلم ذات مرة ببناء دولة رملية في الفراغ، تحولت إلى كابوس.

هزيمة المثقفين العرب

منذ أن عرفنا مصطلح "المثقف العضويّ" الذي ابتدعه غرامشي ونحن نتطلّع إلى دور استثنائيّ (محلوم به) للمثقف في العالم العربيّ، وهو ما يثير قلقنا الثقافيّ والمعرفيّ والإنسانيّ على نحو واضح في إمكان تعريف "المثقف العربيّ" وتكوين صورته وبناء نموذجه. وإذا كانت المجتمعات العربية مطلعَ القرن الماضي وربّما حتى منتصفه قد عاشت عصر التنوير العربيّ والنهضة العربية على يد مجموعة من المثقفين العرب الكبار، فإنّ خيبةً كبيرة خيّمتْ علينا وألقت بظلالها على مستقبلنا بعد أن أخفق المثقفون العرب في تطوير منجزات الحقبة التنويرية، وتراجعَ دورهم، وقلّتْ حظوظ الدور الثقافيّ في رقيّ مجتمعاتنا وانتقالها إلى الطور المدنيّ، وصارت الثقافة في أسفل سلّم الأولويات وانحسرتْ قيمتها في المجتمع بإزاء صعود نجم حديثي النعمة ومراهقي الثورجية والعسكرجية والقومجية والإسلامجية وحثالة البشر العاطلين عن الثقافة.

لوحة لمنصور الهبر.

محمّد صابر عبيد

انقلبت المقاييس الطبيعية ووقع المثقف الحقيقيّ في فخّ الغربة والاغتراب والعزلة والطرد والتهميش والحصار والكآبة. فمن هو هذا المثقف العربيّ إنْ وجد؟ ما قيمته بإزاء ما يحصل في مجتمعاته العربية اليوم من انتهاك صارخ لحقوق الإنسان واستهانة غير مسبوقة بأرواح البشر وأجسادهم ومصائرهم؟ ما هي وظيفته الثقافية والحضارية والإنسانية الجوهرية؟ ما مدى قوّته وجرأته وبراعته في التدخّل وقلب موازين القوى حين يستدعي الأمر ذلك؟ ما مدى إيمانه بالشعوب التي تبحث عن حقوقها الضائعة المستلبة ومدى ما تستحقّه من كفاح ونضال وتضحية من أجل إنصافها؟ وما مدى إيمانه بالإنسان المقهور المهمّش المطارد المهان وهو يتعرّض لأبشع أنواع القتل والتشريد والتهجير والاستباحة؟ وما هو دوره في حلم إنشاء الدولة المدنية وتشييد ثقافة الحرية والديموقراطية والعدل والتسامح والمساواة؟ ثمّة أسئلة تتناسل أسئلةً في هذا السياق يستحيل لجمها ووقف تدفّقها على مشهد الكتابة ومسرحها.

> **"مثقف السلطة" هو أسوأ نموذج ممكن للمثقف، وهو شاهد الزور الأكثر خطورةً وسوءاً على ما يجري. أمّا "المثقف المدجّن" فهو المثقف الذي يكتفي بقول كلمة الحقّ كأنّها باطل، وهو أسوأ أنواع المثقفين وأخطرهم على مستقبل العرب الذين لا مستقبل لهم**

في أنواع المثقفين

"مثقف السلطة" هو أسوأ نموذج ممكن للمثقف، وهو شاهد الزور الأكثر خطورةً وسوءاً على ما يجري. فالثقافة ليست تحصيلَ ما أمكن من معرفة العلوم والفنون، أو كما يعرّف في الثقافة التقليدية "أن يأخذَ من كلّ علم بطرف"، بل المثقف هو من يحوّل معرفته إلى سلوك؛ سلوك منتج، فاعل، وقادر على إحداث التغيير المطلوب في الوقت المطلوب على طريق الحرية والكرامة والعدل والمدنية والتحضّر. ربّما نحن هنا بحاجة إلى ما يمكن أن نصطلح عليه بـ"مثقف الشعب"، وهو يتحسّس معاناته ويستثمر ثقافته في سبيل تمثّلها وابتداع علاج حضاريّ مخلّص لها على صعيد المنطق النظريّ والإجراء الميدانيّ؛ مثقف الشعب الذي في وسعه أن يفكّر بعمق وحيوية وثقة ورحابة ليؤسس رؤيتَه النظرية الكلية لبناء مجتمع الحرية والديموقراطية، هذه الرؤية التي يرتبط تصميمها النظريّ بمسارات إجرائية قابلة للتطبيق والتحقّ، في وسعها إحداث التغيير القياسيّ الفعّال، القادر على توطين الرؤية الثقافية وتجذيرها في أرض الواقع، ليس على أساس ردّ الفعل الإنسانيّ على حالة انتهاك حقوقيّ ما، بل على أساس منهج عام في الحياة تتصدّر الثقافةُ والمثقفُ والرؤيةُ الثقافيةُ، نظراً وإجراءً، قمّةَ الهرم فيه.

ثمّة "مثقف الذات" وهو منْ يسخّر اشتغاله في حقل الإنتاج الثقافيّ بطريقة أنانية تخدم ذاته الفردية في أعلى حالات تذوّتها فقط، حتى وإنْ تبدّى صوت هذا المثقف في مستوى معيّن من مستوياته تعبيره عن ذاته وكأنّه مشغولٌ بالآخر. وثمّة "مثقف المصلحة" المهموم على نحو جشع باستخدام الثقافة جسراً لبلوغ مصالح معيّنة ومخطّط لها مهما كانت الخسائر التي يتعرّض لها المجتمع. ثمّة "مثقف اللعب" الذي يحوّل الثقافة إلى لعبة بلياردو من أجل تسلية فكرية تُرضي نزقه الثقافيّ وتستجيب لنزعته النظرية المغرورة المريضة. ثمّة أنماطٌ أخرى يمكن اكتشافها إذا ما توغلنا عميقاً في تحليل النفسية الثقافية وتفكيك الذهنية الثقافية التي تتحرّك فيها عُقَدُ المثقف في مجتمعاتنا المنهارة.

أمّا "المثقف المدجّن" فهو المثقف الذي يكتفي بقول كلمة الحقّ كأنّها باطل، وهو أسوأ أنواع المثقفين وأخطرهم على مستقبل العرب الذين لا مستقبل لهم، وهو المثقف المتكامل" المعَد كي يقول كلمة الحقّ ويدافع عنها حتى الرمق الأخير، المثقف الذي يجابه السلطة وهو متيقّنٌ بأنّ السلطة تهابُهُ وتحسب له ألف حساب حين ينجح في تأسيس كلّ مقتربات ثقافته التكاملية بحيث تكون لها قوّةٌ خفيّة وقوّةٌ ظاهرة، قوّةٌ متقدّمة وقوّةٌ ساندة، قوّةٌ أفقية وقوّةٌ عمودية، قوّةُ المقالة الصحافية الراصدة، قوّةُ القصيدة الناقدة، قوّةُ اللوحة المشحونة بطاقة اللون والرؤية والفضاء والإيحاء والأثر، قوّةُ الجمهور المؤمن بدور المثقف والثقافة على نحو يمكن أن تسقط دونه عروشٌ، وتتفكك قصورٌ شوامخ، وتنفرط عرى حكومات وأنظمة وبرلمانات، ويعلو صوت الشعب الذي لا يعلو صوتٌ عليه.

عن معروف الرصافي والملك فيصل الاول

ربّما لو تذكّرنا قصة الشاعر معروف الرصافي مع الملك فيصل الأول قبل ما يقرب من ثمانية عقود تقريباً، لأدركنا قيمة الأديب والمثقف وقدرته على إرغام السلطة كي تحترم إرادته وتستجيب لتطلعاته وتصغي عميقاً إلى ما يقول. سأعتمد هنا رواية الشاعر محمد مهدي الجواهري في كتابه السيرذاتي "ذكرياتي"، إذ ثمّة أكثر من رواية وصلتنا عن هذه القصة، وهي أنّ الرصافي ألقى في لبنان قصيدة هجا فيها الملك فيصل الأول ملك العراق، وبعدها بأيام عاد إلى العراق، وربما كان البيتُ الشعريّ الذي أثار الملك وأزعجه هو:

لنا ملكٌ وليسَ له من أمره
غيرَ أنّهُ يعدّدُ أياماً ويقبضُ راتبا

وحيث كان الجواهري الشابّ من حاشية البلاط الملكيّ فقد طلبه الملك فيصل وعرض عليه أن يستضيف الشاعر الرصافيّ في القصر الملكي لكي يتصالحَ معه (الملك هو منْ طلب الصلحَ وليس الشاعر). فعلاً نجحتْ مساعي الجواهري وزار الرصافي الملك وعاتبه الملك على هجائه، وبدأ يعدّد له المنجزات التي قدّمها للشعب، ليقنعه بأنّه أهلٌ لموقع الملك وبأنّه لا يعدّد الأيام ويقبض الراتب فقط. من ثمّ جرت الأمور على نحو مَرض بين "الفريمين"، وأمرَ الملكُ براتب شهريّ للشّاعر الرصافي قيمته 500 روبية (وهو مبلغٌ محترمٌ كما يشير الجواهري). صدّقوني هذا ما حدث فعلاً بين المثقف الشاعر والسلطان الملك، ولا أعتقدَ أنّ الرواية بحاجة إلى تعليق كبير في ظلّ العلاقة المخزية والمهينة التي تحكم صعود السلطان إلى السماء السابعة وتدنّي المثقف إلى أسفل السافلين. فمرحى للملك فيصل الأول ومرحى للشاعر معروف الرصافي وهما يرسمان فضاءً ثقافياً هو الآن أقرب إلى الخيال والأسطورة!

الديكتاتور السلطانُ المبعوثُ من السماء، الضرورةُ الذي لا بديل له، القائدُ الأوحد، هبةُ الله للشعب، المحروس بكوكبة من المثقفين والمفكرين والفلاسفة والجنود المجهولين والسحرة والدجّالين والمزوّرين والمتملّقين وقرّاء الفنجان والكفّ والأبراج والفلك، وهم يفسّرون منجزاته الفكرية للشعوب المسكينة التي لا تستوعب بسهولة أفكار القائد ونظرياته واستباقاته الرؤيوية وحدوسه السحرية وإلهاماته الغيبية، هو الوطنُ وهو الماضي والحاضر والمستقبل والأمل والمصير، لا وطنَ من دونه، ولا حياةَ. هو من يفكر عنّا ويقرّر باسمنا إذا شاء أن يحارب أو يتصرف بأموالنا التي هي أموالُهُ. هو المثقف والشاعر والروائيّ والمنظّر والنبيّ، والإله أحياناً. هو من يحيي ويميت. هو على كلّ شيء قدير، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء. هو المعصوم من الأخطاء، هو الأول والآخر. فماذا يقول الله سبحانه وتعالى في منافسيه من الحكّام العرب يا ترى؟

سألتْ صحافيةٌ إيطالية في مقابلة صحافية، أحدَ قادة الأمة الأفذاذ ممن حكموا بلدانهم ما يقرب من أربعة عقود باسم قائد الثورة (يا إلهي أربعة عقود؟!) وهل رعيتَ الغنمَ يا فخامةَ العقيد؟ فأجابها باستغراب استفهاميّ عجيب: وهل عرفتِ نبياً لم يرعَ الغنم أيتها الصحافية الجميلة؟ بدا لي حينها وأنا أقرأ المقابلة في مجلة عربية (ربّما قبل ربع قرن من الآن أو يزيد) أنّ سؤال الصحافية الإيطالية جاء بتوجيه رسوليّ (إلهاميّ!) من العقيد نفسه، لأنّ هذه الصحافية لا تؤهلها قدراتها الإعلامية الغربية لبلوغ مرتبة سؤال إشكاليّ معقّد وفضائيّ من هذا النوع. وكيف يمكن أن تتبادر إلى ذهنها الأوروبيّ الساذج قضية رعي الغنم وهي إرثٌ نبويّ عريق عندنا لا تستوعبه الثقافة الأوروبية كثيراً؟

الوطن العربي من المحيط الهادر إلى الخليج السادر يتمزّق بشرياً وحضارياً وتضيع هويتُهُ الثقافية كما تضيع شمسٌ في كسوف متعمّد لا يعرف أحدٌ متى ينتهي. فماذا يفعل المثقف حتى يعيد إلى وجه الشمس ابتسامته المشرقة ويمحو الكسوف البربريّ المقيت إلى غير رجعة؟ وما هي الأدوات والإجراءات التي ينبغي له استخدامها لكسر شوكة هذا الكسوف الاستعماريّ الظلاميّ الأرعن وتحرير الشمس من براثن غيابها القسريّ "المفتعل"؟

العولمة في منظورها الثقافيّ الجديد تخترق الحدود والموانع والجدران، مثلما تخترق أسرّة النوم وفراغات الأصابع والتأملات وملاسة الحروف وسريّة العواطف وبراءة الانفعالات، وتوجّه الأحلام والرؤى والخيالات والتأملات نحو نقطة معيّنة، هي القرين الذي نرفض مسيّرين أن ينفصل عنّا، نساعدها في أن تتدخّل في أدقّ تفاصيل حياتنا من أوّل لحظة يبدأ فيها يومنا وإلى أن نضع رؤوسنا على وساداتنا الجميلة النظيفة، وقد نُقشت عليها عبارة "نوماً هنيئاً" أو "تصبح على خير" أو أيّ عبارة برستيجية أخرى تجعل نومنا موعوداً بأحلام سعيدة من دون حبوب فاليوم. لا بأس بعد ذلك بأيّ بلل محتمل يرطّب عوراتنا، فالماء الساخن وصابون "دوف" الساحر والعطور الراقية كفيلة معالجة الخلل وتصحيح مسارت الأشياء بطريقة رومنطيقية فذّة.

الإنسان العربيّ في زمن الحريات والديموقراطيات وحقوق الإنسان يُذبَح ويُهان ويُشوّه، ويتعرّض للتنكيل المتعمّد لأسباب صارت معروفةً اليوم بحكم تقدّم علوم السياسة على يد المتطرفين والغلاة المتبحرين في فنّ القتل، وتسدَّد إلى عقله وضميره وذاكرته وحلمه أعتى أنواع الأسلحة لتفتيت العقل وتسخيف الضمير وتبسيط الذاكرة، ونقل فاعليات هذه الأجهزة الإنسانية المصيرية من فضاء النور إلى مستنقع الظلام.

مستقبلُ العرب يتّجه كما هو مخطّط له منذ سنوات طويلة نحو متاهة الغموض والعبث والفوضى واليباس، نحو الالتباس والإبهام ومزيد من الضياع: سوريا أوغاريت، والعراق بلاد الرافدين، تتعرّض فيهما حضارات آلاف السنين للاستباحة والتنكيل والانتقام؛ الفلسطينيون تُرِكوا يواجهون أعنف قوة قمع وبطش وتدمير في عالم اليوم بلا سند ولا معين. بلا فؤاد حرّ ينتخي ولا عين صافية تدمع، والكلّ يتفرّج على الثروات العربية الهائلة كيف تُنهَب على عينك يا تاجر كما يتفرّجون على مباراة كرة قدم ليسوا طرفاً فيها، وفقراء العرب يزدادون عدداً وعُدّةً بوجوه تتكاثر صفرتها الكئيبة وأسنانها المنخورة يوماً بعد يوم، ويرتفع خطّ الفقر العربيّ طعاماً ولباساً وثقافةً ودماً كلّ عام، ويتضاعف عدد الجائعين العرب والنازحين العرب والمرضى العرب والمعوقين العرب والأميين العرب والجرحى العرب والمشرّدين العرب والمجرمين العرب والقتلى العرب في كلّ مكان وزمان وحيّز وزاوية وركن وشارع وزقاق ومتاهة.

> **مستقبلُ العرب يتّجه كما هو مخطّط له منذ سنوات طويلة نحو متاهة الغموض والعبث والفوضى واليباس، نحو الالتباس والإبهام ومزيد من الضياع: سوريا أوغاريت، والعراق بلاد الرافدين، تتعرّض فيهما حضارات آلاف السنين للاستباحة والتنكيل والانتقام؛ الفلسطينيون تُرِكوا يواجهون أعنف قوة قمع وبطش وتدمير في عالم اليوم بلا سند ولا معين**

في الشرف العربي

الشرف العربيّ الرفيع الذي لا يسلم من الأذى حتى يَراق على جوانبه الدم، هو شرفٌ مستباحٌ منذورٌ للعصاة وقطّاع الطرق والأفاقين وتنابلة السلطان والأبالسة وقنّاصي الفرص، واللغةُ العربيةُ، لغةُ القرآن ولغةُ الجنّة ولغةُ السماء والأرض في طريقها إلى الاندثار. فبأيّ شرف بعد الآن سيتغنّى الشعراء العروبيون بمعلقاتهم التي لن تجد لها مكاناً مناسباً على أستار الكعبة؟ وكيف سيدخلُ من تبقّى من البشر حتى يوم القيامة إلى جنان الخلد وهم لا يجيدون اللغة العربية (نحواً وصرفاً وفقهاً وبلاغةً وإنشاءً)؟ أم أنّ مفهومَ الشرف الرفيع قد تغيّر ولم يعد بحاجة إلى مزيد من الدماء كي يسلم من الأذى، وأنّ الجنّة التي عرضها السموات والأرض، امتلأتْ بالصالحين حتى لم يعد ثمة مجالٌ لوافد جديد؟

في دار الحرب: زيارة لجبل عامل

قوس النصر المرفوعة عند باب البلدة الجنوبية، المكتوب عليها "لا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"، ليست جديدة على النظر أو على المشهد العام. صور الشهداء، هي الأخرى، ملصقة، من زمان، على الأعمدة، أو منثورة بوضعيات وأحجام وشعارات متنوّعة كلها تحضّ على القتال والموت في سبيل الله. تتوالى هذه المشاهد عند باب كل قرية وبلدة ومدينة، فتشعر أنك داخل إلى دار حرب مشهدية، مكرسّة بالنظر أولاً، قبل أن تتكرّس بالسمع حين تلتقي أحدهم وتكلّمه وتعرف منه آثار تلك المشاهد أو الحروب التي أنتجتها، في نفسه.

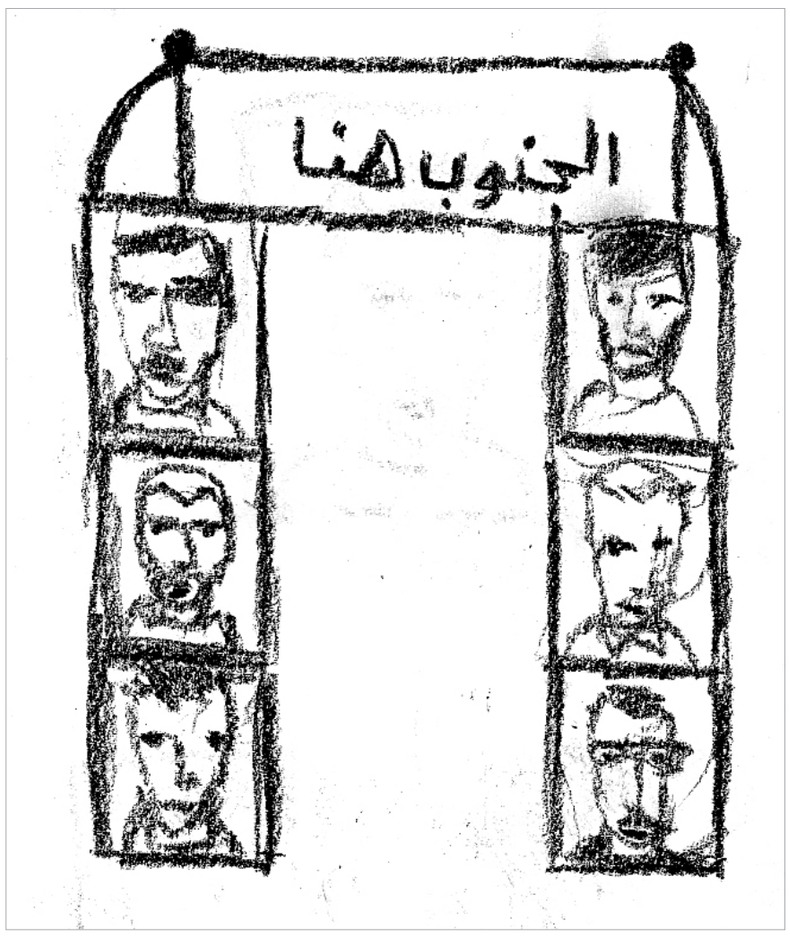

تخطيطات لرفيق مجذوب.

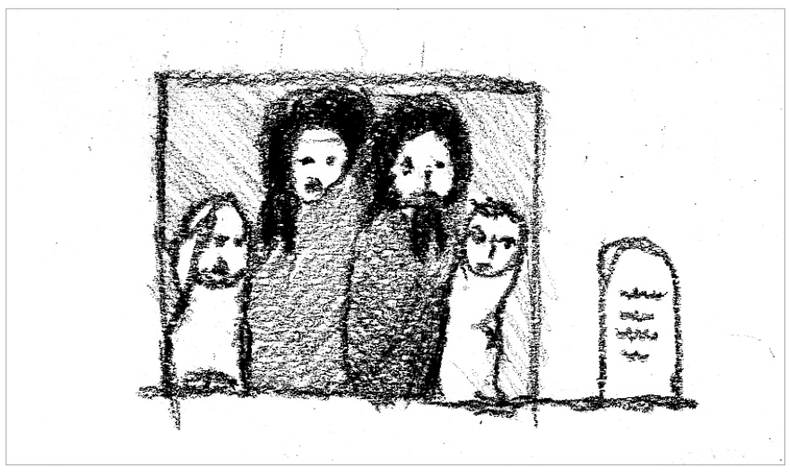

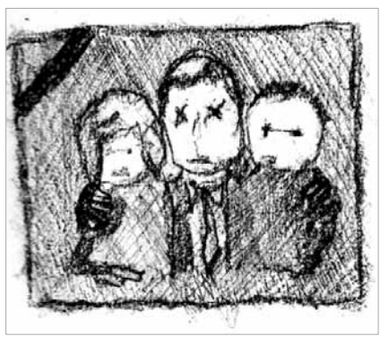

فيديل سبيتي

المقتولون في سبيل الله، المنثورة صورهم في كل مكان، باتوا خليطاً من أولئك الذين قاتلوا إسرائيل في الحروب المتتالية، والذين يقاتلون الآن "الجيش السوري الحرّ"، وعناصر المنظمات الإسلامية المتطرّفة المتكاثرة في سوريا إلى جانب نظام البعث الأسدي. يكاد عدد القتلى الجدد يطغى على مَن سبقوهم إلى الموت، بل إلى جنّات الخلد. كلما امتدّ زمن القتال في سوريا مالت كفّة الغلبة لأعداد الشهداء الذين يسقطون هناك، فيتلاشى جمع الذين قاتلوا العدو الإسرائيلي ويتراجع إلى خلفية المشهد، بالطريقة نفسها التي دُفع بها شهداء أحزاب "الحركة الوطنية" إلى ثقب النسيان بعد استيلاء "حزب الله" على مقاليد المقاومة.

تصميم صور الشهداء لا يختلف كثيراً بين هؤلاء وأولئك، إلا من حيث جدّتها وبريق ألوانها. بهّتت الشمس وعوامل الطبيعة من هواء ومطر، صور المقتولين آنفاً، لتبرز صور القتلى الجدد، ناصعة الألوان وطازجة، كلها تحت فيء أعلام "حزب الله" الصفراء التي أصبحت أكبر حجماً وأكثر ارتفاعاً وانتشاراً، فوق الأعمدة، على مداخل المنازل، فوق سطوحها، على أبواب المقابر، فوق قبب المساجد، على أبواب الحسينيات وفوق القبور نفسها. كأن العلم الأصفر يسحب من قسمات وجوه المقتولين جميعاً تفاصيلها، فتصبح الوجوه كلها وجهاً واحداً أصفر كلون العلم. يصير الشهداء أعداداً أو كتلاً من الأعداد تُذهِب شخصية القتيل وكونه وصوته وحياته السابقة على الموت، وحياته اللاحقة عليه، في ما يخص أسرته وأهله وزوجته وأولاده، الذين خلّفهم هنا في هذه الحياة. سريعاً، يدخل الميت قتلاً في المعارك، في أقصى غياهب الموت، ويفترق عنه أهله ومعارفه وأصحابه وأخوانه ورفاقه، ليصير أيقونة معلّقة بلا ذاكرة وبلا آثار تتعلق بالزمن الذي أمضاه حيّاً ها هنا. ينتصر الموت وينتشر ويدخل في عاديات الأحياء الذين "منهم من ينتظر"، بعدما قضى أقرانهم نحبهم (وما بدّلوا تبديلا).

■■■

لم يعد في الجنوب قرى بالمعنى الذي تشي به الكلمة، كما ترد في الأغاني الشعبية والرحبانية، أو في كتب القراءة العربية للصفوف الإبتدائية، حيث القرية عبارة عن بيوت قليلة، أهلها فلاحون ومزارعون ورعيان يستيقظون عند الفجر وينامون في الساعات الأولى من الليل، بعد أن يمضوا سهرة سمر في الساحة أو على "السطيحات" تحت العرائش. لم تعد القرية في جبل عامل كما وصفها باتريك سيل في أحد كتبه مطالع الثمانينات من القرن المنصرم، تلة ترتفع في وسطها مئذنة وتتوزع حولها المنازل الصغيرة والحظائر الملحقة بها بينما تنتشر السهول المحروثة في خراجها قريباً من الينابيع أو من نهر الليطاني الذي تنتشر أكثر القرى على جنباته من بحيرة القرعون إلى القاسمية حيث يصبّ في البحر.

باتت القرى هذه بلدات تتسع باطراد نحو التلال البعيدة عن مركز القرية الأصلي. وكانت كلٌّ من هذه البلدات قد تخلّت نهائياً عن مركزها وقرويتها وانضوائها في داخلها وانغلاقها على عاداتها وعلى روابط القرابة العائلية التي تجعل منها أحياء منفصلة تجتمع كلها لتشكّل البلدة، منذ حرب تموز 2006 حين وقع الإنفجار العمراني. وهذا ما يمكن تسميته بالانتصار الغرائبي أو الإلهي. إذ إن البلدات التي دمّرت عن بكرة أبيها في الهجوم الإسرائيلي غير المسبوق والساحق، لم يَعُدْ بناؤها على ما كانت عليه، بل أعاد المتضررون بناء ما تهدّم بطبقات ومساحات أوسع مما كانت عليه، لاغين الفراغات الفاصلة بين المباني كما هي الحال في معمار الضاحية الجنوبية، وراحوا يبنون بيوتاً أقرب إلى الفيلات في الأراضي البعيدة التابعة للبلدة وبالأموال المتبقية من التعويضات التي دفعتها الدولة اللبنانية و"حزب الله". تحوّلت القرية إلى مركز قديم متجدد ومكتظ، يتوسط أحياء بعيدة تنتشر فيها البيوت وحدائقها وتُركَن أمامها سيارات الدفع الرباعي الغالية الثمن.

القدرة الشرائية الكبيرة التي حققتها تعويضات حرب تموز، دفعت أصحاب المباني المهدمة إلى بناء محال تجارية تحت منازلهم التي أعادوا إعمارها. افتتحوا الدكاكين ومحال الملابس وبيع الأدوات المنزلية وأدوات البناء والمطاعم والمكتبات، وانتشرت معارض السيارات الحديثة ترافقها محال بيع أكسسوارات السيارات الجديدة. وكان للبلديات الموزّعة إدارتها بين "حركة أمل" و"حزب الله"، دور في تجديد الطرق والمحافظة على نظافتها وتشجير الأرصفة، فانتعشت البلدات الجنوبية في جبل عامل انتعاشاً مشهوداً، وبدا الأهلون على خير ما يرام في السنوات الأولى اللاحقة على حرب تموز.

لكن أموال التعويضات تصرف، والمنازل تحتاج إلى صيانة ومتابعة، وسيارات الدفع الرباعي الجديدة مصاريفها كثيرة وخصوصا في البنزين الذي تكرعه كرعاً، والمحال والمطاعم والدكاكين تحتاج إلى زبائن من ذوي السيولة النقدية الدائمة، والا فإن الإنتعاش

المفاجئ يصبح كساداً، وتتحوّل البلدات من خلايا ناشطة تعيش على تبادل السلع والنقد إلى أسواق راكدة تقتنص الربح والمال والسيولة اقتناصاً، وتبقى المنازل التي لم ترمَّم نهائياً ولم تُدهَن بالألوان على حالها. تصير البلدة الجديدة كجنين لم يكتمل نموّه، يحتاج بقاؤه على قيد الحياة إلى رعاية مفرطة. وهذا ما يفعله "حزب الله" منذ سنوات بعدما أعاد تصميم مخططه لتوزيع الأموال بطرق محددة وصارمة تكفلها رقابة نافذة منعاً للفساد الذي استشرى عند توزيع تعويضات حرب تموز. ففي هذه الآونة يوظف الحزب شباب البلدات في أعمال وحرف يتقنونها، كالسنكرة والنجارة والطبابة والصيدلة والهندسة والتعليم، في مؤسساته الكثيرة، وفي مقدمها المستشفيات والمدارس والأعمال البلدية وغيرها، مقابل راتب شهري محدد وتقديمات إجتماعية، من قبيل المنح المدرسية والطبابة شبه المجانية وتقديمات الأموال المباشرة للأيتام والأرامل وأولاد الشهداء. هذه التقديمات لا تذهب إلى المحازبين المتفرغين فحسب، بل وإلى رفاقهم وكل من يدور في فلك تأييد الحزب، سواء كحزب مقاوم، أو كحزب سياسي لبناني يمثّل الطائفة الشيعية، أو كحزب مقاتل يدافع عن الشيعة اللبنانيين في مواجهة "الغزو الداعشي". هؤلاء المؤيدون الذين يختلف سبب تأييدهم للحزب، يختلفون أيضاً في ترتيب قربهم من هيكله التنظيمي، تالياً من حجم التقديمات المالية التي يحصلون عليها. لكنهم جميعاً يشكّلون أدوات منظومته الإقتصادية في بلدات جبل عامل التي بات وصياً عليها ومن داخل تركيبتها، أكثر من كونه حزباً له مؤيدوه. لولا هذه المنظومة الإقتصادية المتسلسلة والمضبوطة، لتحوّلت البلدات الجنوبية إلى أحزمة بؤس تلتفّ حول نفسها. ويساهم موظفو الدولة القادمون من بيروت خلال العطل الأسبوعية وعطلة الصيف الطويلة في هذه الدورة الإقتصادية. والموظفون كثر مذ أرسى رئيس "حركة أمل" ورئيس مجلس النواب نبيه بري التوظيف وسيلة لتعويض الحرمان الشيعي الشهير والسابق على اتفاق الطائف.

■■■

كلما امتدّ زمن القتال في سوريا، مالت كفّة الغلبة لأعداد الشهداء الذين يسقطون هناك، فيتلاشى جمع الذين قاتلوا العدو الإسرائيلي ويتراجع إلى خلفية المشهد، بالطريقة نفسها التي دُفع بها شهداء أحزاب "الحركة الوطنية" إلى ثقب النسيان بعد استيلاء "حزب الله" على مقاليد المقاومة

معادلة الشراكة داخل الطائفة الشيعية جنوباً، لم تعد بين حزب وجمهور، أو بين تنظيم ومؤيدين، أو بين كتلة تنظيمية حديدية يقف خارجها الموصولون بها، كما كان الحزب طوال الوقت حتى العام 2008 تاريخ إجتياح بيروت والجبل، حين تداخلت شوكته التنظيمية بشوكة مؤيديه ووفائهم النابع من خوف يبثّه الحزب فيهم كلما أمكن. بل بات الجمهور والحزب كتلة واحدة، والجمهور هو عدّة الحزب ومشكّله وموئل قوته وعصبيته وأواصره. وهو مؤطره وحاميه ومؤمّن لقمة عيشه وصورته في الخارج. هذا ما يخفف ربما، حدّة الموت الذي يخبط خبط عشواء بين شباب البلدات المتحمسين إلى القتال أو المدفوعين إليه دفعاً، بقوة التعبئة أو بقوة الهالة الإجتماعية التي تجعل من هذا القتال قدساً من الأقداس وفداء لحياة آخرين وعنواناً للوفاء والإخلاص للإجتماع العام الذي منه ينبثق الشاب المقاتل، ومنه يندفع الى القتال.

في هذه المرحلة يتقلص الفارق القديم بين المتفرّغ حزبياً والصديق، بين المقاتل والعامل في مؤسسات الحزب، بين أهل الشهيد وأهل الطبيب الحزبي، بين المسؤول التنظيمي والشاب المقدّر والمحترم بين أقرانه. فهؤلاء جميعاً باتوا في انخلاطهم واندماجهم وتشكيلهم الآلة الإجتماعية الشيعية في الجنوب، مرآة الحزب لنفسه، بل الحزب نفسه، هذا الذي بات أمينه العام يتحدث إليهم جميعاً بلا تفرقة ولا تصنيف ولا إخفاء لأسرار، إلا تلك المتعلقة بالأهداف التي تفرضها السياسة الإيرانية في المنطقة، لأن هذا النوع من الأخبار لا يتماشى مع طلاوة الخطابة التي يجب الاّ تدخل في التفاصيل. قد تتصل هذه المقدرة والمتابعة والعصبية والقوة الزائدة الدائرة خلف الحزب والإضافية كلما مرّ الوقت، بسببين، أولهما وهو الأبسط، انتداب الإدارة الإيرانية إيرانيين لإدارة المؤسسات الحزبية التابعة لـ"حزب الله" في المناطق اللبنانية، وهؤلاء صارمون في إدارتهم، وتغذّي صرامتهم الخلفية الدينية والسياسية التي ولجوا منها إلى المجتمع الجنوبي المتشيّع على الطريقة الإيرانية منذ عقود. أما السبب الثاني فهو أن "حزب الله" أصيل في الحراك الإجتماعي الشيعي وبين عناصره، سواء أكانوا من المقاتلين الشباب أو الإداريين المسنّين، نساء ورجالاً. فهؤلاء جميعاً من داخل الإجتماع الشيعي نفسه. لذا لا تصحّ مقارنة سيطرة "حزب الله" جنوباً، بسيطرة حركة "فتح" وأحزاب "الحركة الوطنية" على الجنوب في الفترة السابقة على الحرب الأهلية حتى مرحلة ظهور الإمام موسى الصدر وحركة المحرومين.

■■■

أول ما يسمعه زائر بلدةٍ من بلدات جبل عامل من الأهلين على اختلاف مراتبهم الإجتماعية والعلمية والطبقية، يتعلق بالهجمة الأصولية السنية في العراق وسوريا ومنهما إلى لبنان، والتهديد الذي تلحقه بالشيعة أينما وجدوا. يشعر الزائر بأن خوفاً حقيقياً من هذه الجماعات يعتري محدّثيه. وهم يرون أن معارك كالقصير والقلمون وحمص وغيرها، من التي خاضها "حزب الله"، منعت وصول هذه العصابات إلى المناطق الشيعية، وأن الحزب في معاركه السورية يقف سداً منيعاً في وجه السيول السنّية الأصولية. هذا الكلام يردده المؤيدون والمحازبون ومخالفو الحزب سياسياً من بقايا اليسار ومحبّي المقاومة على أشكالها، أو كائناً مَن حمل لواءها. هؤلاء اليساريون العلمانيون، الذين يفترض أنهم خارجون على قيد إنتمائهم الطائفي والمذهبي؛ وقد كان من شأن أي رهان يتعلّق بالتنوع السياسي والثقافي داخل الطائفة الشيعية أن يقع عليهم؛ يفيد مجرى الأحداث الواقعي بأنهم مستنكفون أو خائفون أو خاضعون للأمر الواقع، فيما هم يرون الإستنقاع المدقع الذي يجرّ إليه "حزب الله" الطائفة الشيعية في لبنان.

الحروب الإسرائيلية الكثيرة والعدوانية والمدمّرة، لم تكتّل الأفراد والجماعات في الطائفة الشيعية حول "حزب الله" كما تفعل الجماعات السنية الآن. بل على العكس. فإبان الإحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان كان من بين عملاء إسرائيل شيعة كثر في قرى الشريط الحدودي. أما خارج الشريط، أي في المناطق المحرّرة، فكان يرتفع صوت معارضي سياسات الحزب من اليساريين السابقين والمستقلين والليبراليين، وبعضهم جرّب، في أواسط التسعينات من القرن المنصرم، الإجتماع حول النائب السابق حبيب صادق أولاً، ثم في أطر تنظيمية يسارية سرعان ما كان عقدها ينفرط. لكن في هذه الآونة اختفى هؤلاء جميعاً، إن لم نقل إنهم أنضووا في الأطر الإجتماعية الموالية للحزب. أما القلّة القليلة من المناوئين فهؤلاء يتم تخوينهم وإتهامهم بالعمالة، إذا أعلوا الصوت في رفضهم سياسة "حزب الله" اللبنانية والسورية.

أول ما يسمعه زائر بلدةٍ من بلدات جبل عامل من الأهلين على اختلاف مراتبهم الإجتماعية والعلمية والطبقية، يتعلق بالهجمة الأصولية السنية في العراق وسوريا ومنهما إلى لبنان، والتهديد الذي تلحقه بالشيعة أينما وجدوا. يشعر الزائر بأن خوفاً حقيقياً من هذه الجماعات يعتري محدّثيه

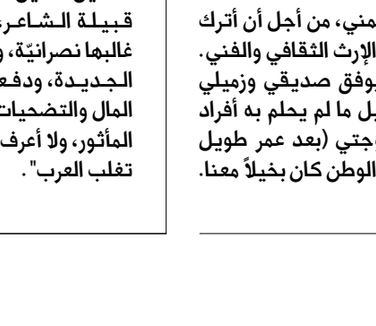

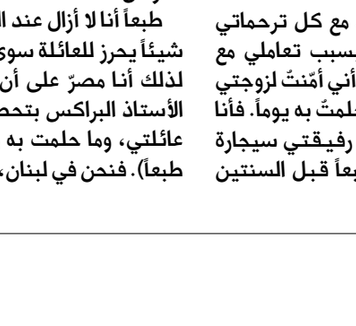

تعليق

ريمون جبارة

زوجتي هل تكون محظوظة؟

حظّها كبير الأرملة غانسن، زوجة المرحوم مايكل غانسن. لمن لم يقرأ الجرائد في الأيام القليلة الفائتة، أحبّ أن يعرف القرّاء كيف يوفّق الله محظوظيه في الحياة وفي الممات.

هاكم القصة.

كان المرحوم مايكل يكثر من تدخين السجائر حتى توفاه الله بمرض سرطان الرئة. فأقامت السيدة أرملته دعوى ضد أهم شركة أميركية لصناعة التبغ أمام إحدى محاكم فلوريدا، فحكمت لها المحكمة بتعويض قدره ثلاثة وعشرون مليار دولار أميركي، ولورثته من الأبناء والأحفاد بمبلغ قدره 16 ألف دولار.

محظوظون بعض المراحيم.

أنا شخصياً سررتُ بالخبر. مع كل ترحماتي على زميلي مستر مايكل، وبسبب تعاملي مع السجائر بشهوة كبيرة، أشعر أني أمّنتُ لزوجتي ولأولادي وأحفادي ميراثاً ما حلمتُ به يوماً. فأنا قفزت فوق سنّ السبعين، رفيقتي سيجارة مذ كان عمري 17 سنة. طبعاً قبل السنتين الماضيتين، ما كانت شركات التبغ تكتب على علب السجائر عبارة "التدخين يقتل"، لذلك كلّفتْ جميع القديسين وصديقي وزميلي المحامي البراكس الاهتمام بتحصيل ما يستحق لورثتي من تعويضات بعد رحيلي، شرط أن تعاملني المحاكم اللبنانية كمعاملة محكمة فلوريدا، ولا تعتبر إعلان "تلك العبارة" حجة لصالح شركات التبغ.

أديبنا الكبير المرحوم مخائيل نعيمة قفز فوق المئة سنة وما اكتشف استعمال ولاعة البنزين، إذ كان يشعل سيجارته بعود كبريت صباحاً ولا تختفي السيجارة الا ساعة ذهابه الى الفراش.

طبعاً أنا لا أزال عند التمني، من أجل أن أترك شيئاً يحرز للعائلة سوى الإرث الثقافي والفني. لذلك أنا مصرّ على أن يوفق صديقي وزميلي الأستاذ البراكس بتحصيل ما لم يحلم به أفراد عائلتي، وما حلمت به زوجتي (بعد عمر طويل طبعاً). فنحن في لبنان، والوطن كان بخيلاً معنا.

تعليق

كميل حوّا

لماذا لم يخبرني أحد؟

كون الشاعر الأخطل نصرانيًا، كاد يكون الخبر الوحيد الذي تعلمّته في صغري عن وجود نصرانيّة ما في التّاريخ العربي القديم، اذا جاز التعبير. كنا ندرس هذا في المدرسة في معرض الدلالة على تسامح الخليفة الأموي، حين دخل عليه الأخطل سكران يجر الذّيل تيهًا، وكأنه "على أمير المؤمنين أمير". وكنا نكتفي بهذا القدر من السعادة.

ولكن، كفتيان في المدارس، حُرمنا من أيّ معرفة أخرى في هذا المجال. بدايةً، من معرفة كيف كان الاخطل نصرانيا؟ ومَن كان أهله؟ أو كيف كان يمارس نصرانيته هذه؟ مع مرور السنين-سنين كثيرة- بدأتْ أسمع شذرات عن قبيلة الشاعر، تغلب، وأنّها كانت في غالبها نصرانيّة، وقاومت الانتقال الى العقيدة الجديدة، ودفعت مقابل ذلك الكثير من المال والتضحيات. الى أن سمعتُ القول المأثور، ولا أعرف صاحبه، "لولا الاسلام لأكلت تغلب العرب".

معنى ذلك، انه كان هناك نصرانية عربية قبل الاسلام، يُحسَب لها حساب. مع السؤال بدأت معلومات أخرى تتتالى. فامرؤ القيس، الشاعر الملك، كان نصرانيًا كذلك، حتى وصلنا الى عمرو بن كلثوم، قريب الأخطل، وهو من تغلب أيضاً، صاحب البيت الشهير الذي يملأ فيه البرّ حتى يضيق. ولا أعرف اذا شاءت المصادفات أن يكون موطن الأخطل وعشيرته منطقة الموصل نفسها. إلى أن عرفنا من كتاب لويس شيخو أنّه ليس هناك شاعر كبير في العصر الجاهلي بمنأى من هذا الانتماء، أو يكاد. وهذا ما كنا نغفل عنه بالكامل في حداثتنا.

كأن كل ما كان في التاريخ العربي القديم، تاريخ ما قبل الاسلام، من أمجاد، أكان في البطولة أم الشعر، أم في مكارم الأخلاق، كان مجرّد "جاهلي". لأكتشف منذ فترة قصيرة للغاية أن حاتم الطّائيّ أكرم العرب كان نصرانيا هو الآخر. أسأل اليوم، وخوفي أن يكون بعد فوات الأوان، لماذا حجبت هذه المعرفة عني كفتى؟ لماذا حُرمتُ من الاعتزاز بأمجاد خطّها عرب نصارى قبل الاسلام، لتكون جزءًا من مخيلتي ومخزون مشاعري ووجداني؟

لم يخطر ببالنا ان نسأل ونحن في المدرسة، وخصوصاً في فترة المدّ العربي في الستينات، اذا كان حاتم الطائيّ نصرانيًا، لانه كان يكفي، لنا، ولا يزال بالتأكيد، أن يكون عربياً.

بين كل تلك الحقائق، على تفاوت دلالاتها ومغازيها، هذه الحقيقة الأخيرة هي موضع الاحتجاج الأشدّ بالنسبة لي، كفتى عربي يتعرّف الى دنياه. فلو أعلن أستاذ الأدب العربي أو التاريخ أن أكرم العرب كان نصرانيا لكفاني. وخصوصاً أن حاتم طي (يبدو أنه كان من همذان)، جمع أعلى فضيلتين عربيّتين: الكرم والشهامة. اسمه يجري الى اليوم على كل لسان، وتحوّل في حياتنا اليومية الى أمثولة تحتذى. هو مثل عنترة، الى حد ما، في البطولة والبأس وعزّة النفس.

كان زميلي في الدراسة يشاطرني الاعتزاز بهؤلاء لكونهم عربًا، لكن كان لديه حصّة خاصة بما يعتزّ به مع ظهور الإسلام من بطولات وأمثال ومآثر. بعضها، لا بل الكثير منها، كانت موضع اعتزاز كل الفتيان، وأنا منهم. وهكذا لم يَترُك لي ما أعتزّ به، الى جانب الشحّ هذا في التاريخ القديم، إلا بضعة أسماء في التاريخ المعاصر مع بداية المد القومي. ومنهم الأخطل الصغير.

هكذا حَرمتُ، كما حَرم كل فتى عربيّ مسيحيّ، على ما أظن، من فرصة صوغ علاقة أكثر تكاملًا بتاريخه. وفُرِض عليه الاستسلام لكيان شعوري مختلط وغير متوازن. لا أعرف الآن مَن أعاتب، وإلى من أشكو. وإذا كان اللوم يقع على "الاكثرية" التي بيدها صوغ التاريخ، إلا أن هناك لوما بلا شك على هيئات مسيحية، أهملت هذا التاريخ قصدا أو جهلا من غير قصد. وربما هي نفسها لا تّعير هذا كلّه، بما في ذلك نصرانية حاتم الطائيّ، قيمة حقيقية. خوفي أن يكون ذاك النوع من التحيّز القائم على خلافات في المعتقد الديني، من جملة أسباب ذاك الإهمال، وربما هو نفسه كان خلف ظاهرة هذين التناقض والهوان اللذين مرّت بهما المسيحية العربية، ولا تزال تمرّ بهما، الى ان يصل يوم لا يكون هناك أحد يخبر أحداً بأن حاتم الطائيّ كان نصرانياً. ومثله الأخطل من الموصل.

النهار
81 سنة

في العدوان الإسرائيلي وسؤال الانتفاضة الثالثة

في الحرب العالمية الثانية أنشأ مؤتمر موسكو 1943 لجنة للتحقيق في جرائم الحرب، ووقّع ممثلو الدول الكبرى في العام 1945 اتفاقاً يقضي بتأليف محكمة عسكرية لمحاكمة مرتكبي الجرائم ضد السلام، وهم من الذين أعدّوا الحرب العدوانية وجرائم إبادة العنصر أو العرق. اجتمعت لهذا الغرض محكمة نورمبرغ 1945-1946 وحكمت بالإعدام وبالسجن على عدد من كبار قادة النازية. كان ذلك ابتغاء مزيد من احترام كرامة الإنسان حتى في الحروب المرعبة بالذات. اليوم كالأمس، لا نزال نشعر كبشر بالحاجة العميقة إلى ما ليس منه بد، إلى محاكمة مجرمي الحرب ومرتكبي الجرائم ضد الإنسانية في إسرائيل وما شابهها من أنظمة، إقليمياً ودولياً، باعتبارها عائقاً رهيباً في وجه الكرامة الإنسانية الفردية والجماعية.

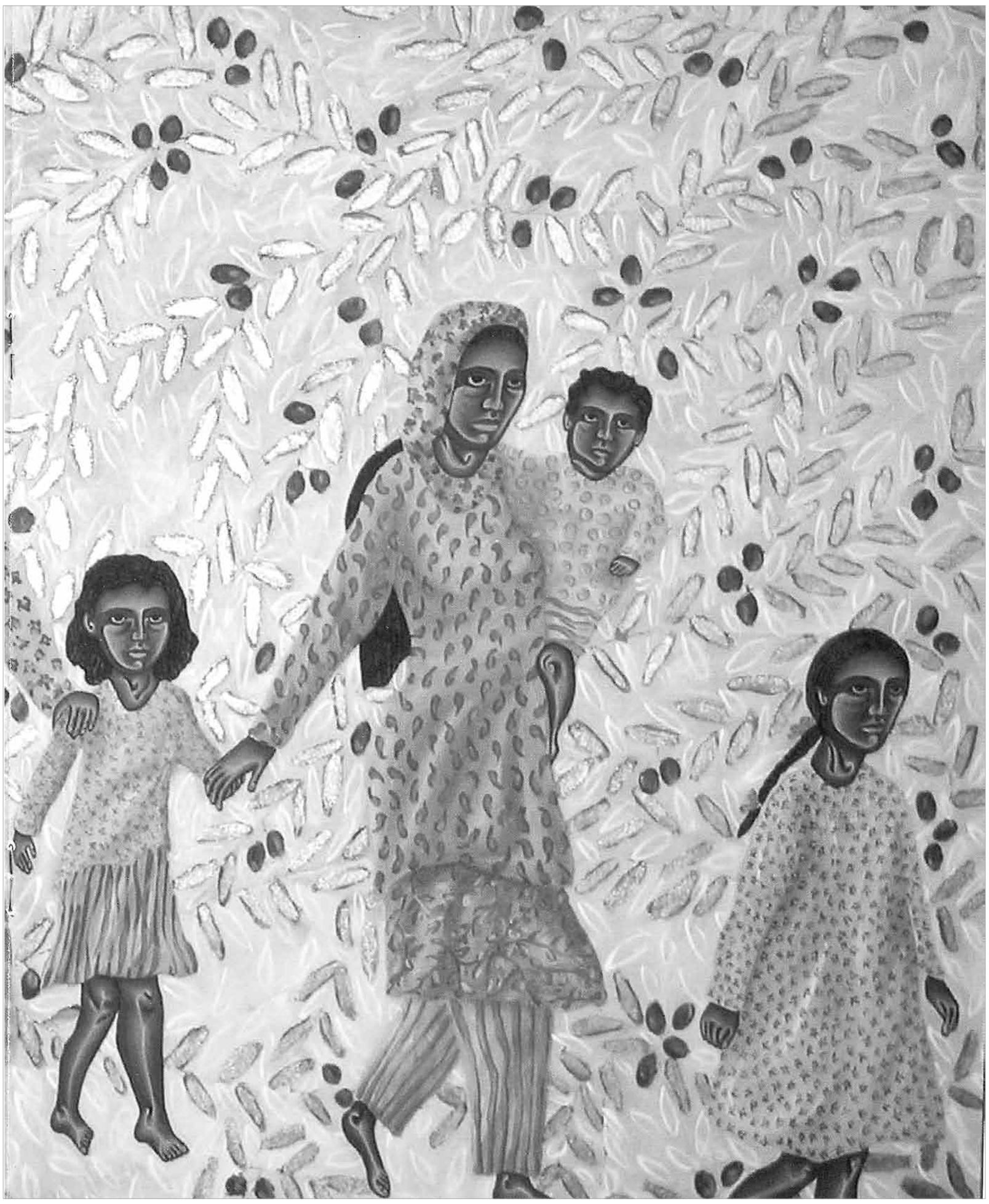

تفصيل من لوحة لريم الجندي.

علا شيب الدين*

إسرائيل هذه في الواقع، ليست سوى كيان صهيوني يستند إلى خرافة سموّ العرق اليهودي وفرادة إسرائيل كبرهان على حضور الإله في التاريخ، وغير ذلك من اعتقادات مريضة تشبه في الصميم اعتقاد هتلر بتفوق العرق الآري الذي جعل موقع ألمانيا ومكانتها "فوق الجميع".

نضم صوتنا إلى كل الأصوات المطالبة بفتح تحقيق دولي في شأن جرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل ولا تزال، وفي شأن مقتل الفلسطيني محمد أبو خضير حرقاً وهو حي، والتحقيق أيضاً في شأن مقتل ثلاثة شبان إسرائيليين بعد اختطافهم على يد حركة "حماس" الفلسطينية لأيام بحسب زعم الإسرائيليين، تلك الرواية الإسرائيلية الصرفة التي لم تتثبت من صحتها أي جهة مستقلة حتى الآن، والتي اعتقلت إسرائيل على إثرها المئات من الفلسطينيين، وإليها استندت على مايبدو، لتبرير عدوانها الوحشي الأخير على غزة؛ القطاع الذي استهدف فيه القصف الإسرائيلي المدنيين الآمنين في بيوتهم، والمدارس، المساجد، المستشفيات...، وارتكبت مجازر في حق عائلات بأكملها.

> **ترى لماذا يخاف الإسرائيليون التوجه إلى المحاكم الدولية؟ إن كانوا بريئين لماذا يخافون؟ أما آن أوان زمنٍ تكون فيه الأولوية للأخلاق لا للسياسة؟ أو تتوازى فيه الأخلاق مع السياسة؟**

كانت وزارة الصحة الفلسطينية قد أعلنت حتى يوم 30 تموز 2014 مقتل 1232 شهيداً وسقوط أكثر من 7000 جريح، وقد سوّيت أحياء بأكملها في الأرض، كحي الشجاعية شرق غزة – على سبيل المثال لا الحصر- الذي قُصف في العشرين من شهر تموز وراح ضحية القصف أكثر من 70شهيداً، وقد رفضت إسرائيل حينئذ مجرد هدنة حتى، لمدة ثلاث ساعات لإجلاء الجرحى والمصابين والقتلى، بل منعت سيارات الإسعاف من الوصول إلى الحي. قصفٌ طال عائلات بأكملها واستهدف صحافيين ومدارس ومأوى عجَزة. بعد انتشال الجثث خلال "الهدنة الإنسانية" يوم 27 تموز ارتفع عدد الشهداء في الحي إلى 120.

بحسب تقديرات الأمم المتحدة، ثمانون في المئة من الضحايا في غزة هم من المدنيين. قصف المدنيين جريمة حرب لا يَقبَل في صددها أيُّ نوع من الأعذار والذرائع وفق القانون الدولي. لنا أن نستشهد ببعض ما صرّحت به شخصيات إنسانية عامة ومنظمات حقوقية وتقارير دولية. في جلسة لمجلس حقوق الإنسان انعقدت منذ أيام، اعتبرت نافي بيلاي أن "الحرب على غزة انتهاك للقانون الدولي الذي يحظر استهداف المدنيين". أما منظمة "هيومن رايتس ووتش" فقد أكدت مراراً: "على إسرائيل أن تكفّ عن هجماتها غير القانونية على غزة"، وطالبت منظمة "أطباء بلا حدود" بوقف استهداف المدنيين. وفي العودة إلى تقرير غولدستون 2008-2009 جاء: "الحصار جريمة حرب في القانون الدولي ويجب رفع الحصار عن غزة".

ترى لماذا يخاف الإسرائيليون التوجه إلى المحاكم الدولية؟ إن كانوا بريئين لماذا يخافون؟

■■■

بعيداً من الألعاب اللغوية السمجة التي طالما أطلقتها إسرائيل على عملياتها العسكرية ضد الشعب الفلسطيني الأعزل: "عمود السحاب"، "الرصاص المثقوب"، وأخيراً "الجرف الصامد"، العملية التي بدأت على غزة يوم 7 تموز 2014، والتي ارتأت إحدى السيدات من أهالي غزة في مقابلة إعلامية، أن تسمّيها "حرب البيوت"؛ لا نظن مفردة "حرب" حتى، منصِفة أو قادرة على وصف الواقع بدقة. ما يجري في غزة عدوان غاشم وغادر. لا حرب متكافئة بين طرفين ندّيْن، متأهبَيْن، ومجهزَيْن عدّةً وعتاداً بشكل متكافئ. بل إن التضخيم من القدرة العسكرية للمقاومة الفلسطينية من شأنه، كما نعتقد، أن يوقع المزيد من الضرر بالفلسطينيين، وما صدور بيان من مجلس الأمن يدعو فيه "كل الأطراف" إلى وقف إطلاق النار، سوى دلالة على أنه من غير المنطقي، ومن غير الأخلاقي ولا الواقعي، أن يجري الحديث هنا عن "طرفين" ندَّين متقاتلَيْن. إذ إسرائيل دولة احتلال، وهي طرف "مهاجِم"، لديه ترسانة ضخمة، مجهَّز بجيش وعدة وعتاد، وبـ"أحدث" الأسلحة وأكثرها "تطوراً"، بينما الفلسطينيون المقاتلون هم "مقاومون"، لا يملكون سوى القليل من السلاح. وفي حين تقتل إسرائيل مدنيين ومسنّين وأطفالاً ونساء وأبرياء، تقتل المقاومة الفلسطينية جنوداً إسرائيليين. في تطور يُعتبَر إيجابياً في الخطاب السياسي لـ"حماس"، أكّد قائدها خالد مشعل في خطاب بعد أيام من بدء العدوان على غزة، أن المقاومة لن تستهدف المدنيين في إسرائيل. في هذا يتبدّى شرف المقاومة الفلسطينية من حيث هي تستهدف مواقع عسكرية إسرائيلية، في قبالة جيش احتلال تنعدم لديه القيمة الإنسانية والمبدأ الأخلاقي، ويستهدف مدنيين وأماكن مدنية ودينية. حتى أن ثمة فيديواً يَظهر قصفاً إسرائيلياً على مقبرة في رفح جنوب غزة! لا تكتفي إسرائيل على ما يبدو، بقتل الحياة، بل تريد قتل نقيضها أيضاً، لتمسي بذلك نموذجاً للعدم، للخواء، للحقد المطلق.

■■■

يريد الإسرائيليون غزة منطقة منزوعة السلاح، يوافقهم في ذلك الأميركيون خصوصاً، مثلما يوافقونهم في اعتبار المقاومة الفلسطينية مجرد "منظمات إرهابية". يريد الإسرائيليون تدمير الأنفاق في غزة، وتنسجم مع هذه الإرادة السلطات المصرية التي تريد أيضاً تدمير الأنفاق وتدمير التيارات الإسلامية دفعة واحدة. في خصوص السلطات المصرية، سوف يسجّل التاريخ أن العسكر في مصر قد أغلقوا معبر رفح في وجه الجرحى الفلسطينيين يوم 2014/7/11، بحجة أنه يوم جمعة وهو عطلة رسمية! لكن الشعب الفلسطيني يريد الحرية أولاً، والانعتاق. الناس في غزة يريدون أن ينفتحوا على العالم الخارجي وألاّ يبقوا محاصَرين محكومين بمنفذ برّي وحيد يفتحه صاحبه متى يشاء ويغلقه متى يشاء؛ معبر رفح أعني. غزة على البحر، ومن حقّ أهلها أن يتمتعوا بممرّ بحري يصلهم بالعالم، وأن تكون لديهم موانئ ومطارات، وكل ما هو لائق بعيش حرّ كريم (كيف يملك قصب السكر في فلسطين والبلاد العربية كافة، كلَّ هذه الحلاوة ويشرب الناس فيها الشاي مَرّاً؟!). أما آن أوان زمنٍ تكون فيه الأولوية للأخلاق لا للسياسة؟ أو تتوازى فيه الأخلاق مع السياسة؟

إسرائيل عدوّ بالضرورة لكل توجّه أو جهد وحدوي

ثمة غايات ينزع إليها الإسرائيليون عبر عدوانهم المستمر على الفلسطينيين، لعل أبرزها، تفتيت الصمود الفلسطيني وضرب أي محاولة من شأنها لمّ شمل الفلسطينيين وتعميق أواصر الوحدة والأخوّة بينهم. على ضوء هذا، يمكن فهم العدوان الأخير على غزة القاصد، من جملة مقاصد، إلى ضرب الحاضنة الاجتماعية للمقاومة الفلسطينية. يبدو ذلك من خلال الخطاب الإعلامي الإسرائيلي الزاعم أن "حماس" تتخذ من المدنيين دروعاً، وتحتمي بالمساجد وتتخذ مواقع تدريب بالقرب من المدارس والمستشفيات. يريدون ضرب المصالحة الفلسطينية واتفاق القاهرة 2012 الذي أفضى إلى تشكيل "حكومة وفاق وطني". الحكومة التي باتت محلّ تحريض من "الساسة" الإسرائيليين والإعلام الإسرائيلي، كون الانقسام الفلسطيني كان في السابق أكبر انتصار استراتيجيّ لإسرائيل.

بصرف النظر عن الاختلاف الإيديولوجي بين "فتح" التي تفضّل التفاوض و"حماس" التي تنحاز إلى المقاومة؛ فإن "حكومة الوفاق الوطني" – كما يقول الفلسطينيون- هي إنجاز، كونها حكومة تكنوقراط، تضمّ خبراء وأكاديميين. الحكومة ليست "فتحاوية" ولا "حمساوية". هكذا يصبح من السهل فهم تصريحات، من مثل تصريح ليبرمان في مطالبته "المجتمع الدولي" بالضغط على "حماس" في شأن عدم مشاركتها في الحكومة الفلسطينية. وهذا الأخير كان قد هدّد عام 2009 باستعمال قنابل تؤدي إلى عد السماع بغزة مرة ثانية!

أحرجت المصالحة الفلسطينية إسرائيل، على ما يظهر، وكشفَت أوراقها، لذا افتعلت الحوادث قبل عدوانها على غزة، ثم باشرت العدوان. الحلّ الدولي مبنيّ على إقامة دولتين، إلا أن الإسرائيليين يجيبون: ليس هناك شريك فلسطيني (في "اعترافاتها" ترى غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل سابقاً أنه "لا يوجد شعب اسمه شعب فلسطيني")! هناك وزراء في الحكومة الإسرائيلية يرفضون الاعتراف بوجود شعب فلسطيني حتى. ألهذا الحد وصل العمى السياسي الإسرائيلي؟ لقد دمّر الإسرائيليون العملية السلمية وتحدّوا العالم وخرقوا قوانينه. ينهج الإسرائيليون سياسة التقسيم من أجل السيطرة، يريدون ضرب الوحدة الفلسطينية لكي يقولوا للعالم: ما من طرف فلسطيني موحَّد لكي نفاوضه، ولكي يوسّعوا المستوطنات. لماذا بنى الإسرائيليون الجدار (نظام الأبارتايد) في الضفة الغربية؟ يريدون من الفلسطينيين إنكار تاريخهم. يريدون اقتلاعهم من جذورهم وطمس هويتهم (فرادتهم). إسرائيل كيان غاصب ومغتصِب. "دولة" لا تعرف حدودها ولا تريد أن تعرف. في "ضوء" هذا كله وأكثر، يمكن فهم قول لتسيبي ليفني: "لن نقول لكم أبداً أين حدود إسرائيل". في المقابل، يصبح لفلسفة فيخته "أنا أقاوِم؛ إذاً أنا موجود" كل المعاني على أرض فلسطين. أرض الفلسطينيين.

في الدعائية الإسرائيلية

يمكن في صدد الدعائية هذه، ملاحظة تجلّيها في موضوعين أساسيين، يمكن عنونة أحدهما بـ"سياسة المسكنة"، وثانيهما بـ"سياسة الاستعلاء".

1

دعونا لا نسافر بعيداً في عالم التنظير والمفاهيم المجردة، ونستلّ مباشرة من الواقع، أمثلة من شأنها أن تكون دالاً ومدلولاً في آن واحد على "سياسة المسكنة" الإسرائيلية. "فُرضت الحرب علينا"، بهذا التعبير يحاول الإسرائيليون إيهام العالم، الغربي خصوصاً، بأنهم "مساكين"، كانوا قابعين في بيوتهم آمنين هانئين قبل أن يباغتهم العدوّ بجيش كامل العدة والعتاد!، في حين أنهم حضّروا للحرب وجهّزوا لها وأعَدّوا. افتعلوا الحوادث، وحددوا الخطاب الدموي اللازم لتبرير الحرب سياسياً وإعلامياً. يقولون: "إسرائيل تستخدم الصواريخ لكي تحمي شعبها، و"حماس" تحتمي بشعبها لكي تحمي صواريخها". يقولون هذا لكي يغدو قصف المستشفيات والمدارس والمساجد والبيوت، مقبولاً. لكي يمسي قتل الأطفال والنساء والأبرياء المدنيين العزل مستساغاً. لكي يقتلوا كل شعور إنساني، وكل تعاطف مع الفلسطينيين بالنسبة إلى مَن يتابع الحدث أو الخبر من خارج المشهد على الأرض.

قول دعائيّ من مثل "نواجه عدوّاً شرساً"، لرئيس الوزراء الإسرائيلي نتانياهو، يدفع البعض، إلى المساواة بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، كأنهما في حرب متكافئة. وعندما يقول نتانياهو أيضاً: "أمامنا مهمة واحدة، وهي مكافحة الإرهاب"، المهمة التي بات معلوماً أنها ذريعة أنظمة الاستبداد والعسكر والطغيان حول العالم، في قمع الحريات وسحق الكرامات وسلب حقوق الشعوب في تقرير مصائرها، فإن ذلك القول، من شأنه الإيحاء بأن إسرائيل دولة حقّ وقانون تحارب الإرهاب، في حين أنها دولة قامت على الإرهاب وتأسّست عليه، فتاريخ عصابات الهاغاناه (مثلاً)، التنظيم العسكري للحركة الصهيونية، حافل بالإرهاب، بذبح الأبرياء، باستعمال الوسائل القذرة كافة من أجل تهجير الفلسطينيين من أراضيهم وبيوتهم، وتشريدهم. يتحدثون عن تنظيمات إرهابية، بينما حزب "الليكود" (مثلاً أيضاً) يوازي أي تنظيم إرهابي في تطرفه وتشدده وتعصبه.

يحضّ التفكير النقدي على الإمعان في التمييز بين نقل الخبر والدعاية، بين الواقع والدعاية، بين المعرفة الناضجة وصوغ الخبر أو صناعته، بحيث يكون لصالح مَن يروِّج له. وعليه، فإن "التحذيرات" الإسرائيلية التي من شأنها تنبيه المدنيين الفلسطينيين قبل القصف، والتي دأب الإسرائيليون على الحديث عنها إعلامياً منذ بدء عدوانهم الأخير على غزة، يفنّد الواقع كذبها. وما استشهاد عشرة أطفال في متنزه بمخيم الشاطئ غرب غزة في أول أيام عيد الفطر، يوم استجابت المقاومة الفلسطينية لدعوة الأمم المتحدة للدخول في هدنة مدتها 24 ساعة مراعاةً لمناسبة العيد، الهدنة التي رفضها الإسرائيليون أو لم يردّوا في شأنها، ما تلك الواقعة سوى دليل واحد و"بسيط" على كذب الخطاب الإعلامي الإسرائيلي، وصدق الوقائع التي تتحدث عن جرائمهم. بعض الأهالي في غزة وصفوا المنشورات التي قال الإسرائيليون إنهم وزّعوها لكي يبتعد المدنيون عن مواقع "حماس" ومراكزها، بأنها "مثيرة للذعر لا التحذير".

2

تقتضي "سياسة الاستعلاء" الإسرائيلية بذل القسم الأعظم من الطاقات في دعائية تصوّر إسرائيل نموذجاً في الديموقراطية، والتعايش مع الآخر، والسلام. نموذج متحضّر يصرف طاقات هائلة في مجالات التعليم والصحة والفن والثقافة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، في قلب "شرق أوسط" متخلف، جاهل، دموي، يمور بصراعات دينية طائفية مذهبية وإثنية. غير أن كل التجارب والوقائع التاريخية أثبتت ولا تزال، مذ تمّ "زرع" إسرائيل في قلب العالم العربي، أن السمة الرئيسة للصهاينة هي العدوانية وكراهية الآخر. من الإسرائيليين وحلفائهم، الأميركيين خصوصاً، تعلّمت الأنظمة العربية كيف تسحق شعوبها وتقمع الحرية والفكر والإبداع والثقافة والفن والمعرفة، أو محاولة مهمّة وجادة للنهوض باقتصاد البلدان العربية والتعليم والتنمية. ما جرى ولا يزال في ظلّ ثورات "الربيع العربي" مثال واضح على ذلك.

يقول الإسرائيليون إنهم دعاة سلام، صنّاع نهضة، وروّاد حداثة وديموقراطية في المنطقة. لكن في الأمس القريب، بعد أيام قليلة من بدء العدوان الإسرائيلي على غزة، كان "صندوق النقد الدولي" قد قدّر خسائر الاقتصاد الإسرائيلي جرّاء هذه الحرب، بـ 546 مليون دولار. يتبجّح الإسرائيليون في خصوص إدخالهم سيارات أغذية إلى قطاع غزة، وهُم في الأصل، ومن قبلُ، يأخذون ثمن هذه المواد وغيرها من الفلسطينيين!

معلومٌ أن إسرائيل قامت على المساعدات (لكي لا نقول على التسوّل)، وليس من شأن من يتلقّون مساعدات من دول كالدول الغربية مثلاً، تلك الدول التي تَعتبِر إسرائيل جزءاً منها، أو يدها الممدودة إلى قلب الشرق الأوسط، إحراز إنجازات ترتقي بأحوال البشر وأوضاعهم. فمعلومٌ أيضاً أنه ليس من مصلحة إسرائيل ولا الغرب، ولا من مصلحة المستبدين الشرقيين والظلاميين كافة أيضاً، أن تكون في الشرق الأوسط ديموقراطية وحرية ونماء ورخاء. أمضت غولدا مائير (مثلاً) باعتبارها واحدة من زعماء الحركة الصهيونية، مذ جاءت إلى فلسطين عام 1921، أمضت حياتها مسافرة تجمع الأموال، لا لكي تبني "حضارة" اسمها إسرائيل، بل لكي تقوّض الحضارة في "الشرق الأوسط". ويبدو أن التقوقع، والإحساس الدائم بالعزلة لدى الإسرائيليين، يستدعي في المقابل ردّ فعل مضاداً دائماً بحثاً عن القوة والحماية.

في سياق "سياسة الاستعلاء" نفسها، يمكن أيضاً إدراج استراتيجيا "الإنكار أو التضليل حين تكشف الحوادث عن جوانب ضعف لدى الإسرائيليين" ثم "العدول عنهما حين لا يعود هناك جدوى منهما". نطرح على سبيل المثال: حين أسرَت "كتائب القسام"، الجناح العسكري لـ"حماس"، الجندي الإسرائيلي شاؤول أرون، بعد أيام من بدء العدوان الإسرائيلي الأخير على غزة، أنكرَ

> **دعونا لا نسافر بعيداً في عالم التنظير والمفاهيم المجردة، ونستلّ مباشرة من الواقع، أمثلة من شأنها أن تكون دالاً ومدلولاً في آن واحد على "سياسة المسكنة" الإسرائيلية. "فُرضت الحرب علينا"، بهذا التعبير يحاول الإسرائيليون إيهام العالم، الغربي خصوصاً، بأنهم "مساكين"، كانوا قابعين في بيوتهم آمنين هانئين قبل أن يباغتهم العدوّ بجيش كامل العدة والعتاد!**

تفصيل من لوحة لريم الجندي.

سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة ذلك، لكن الإسرائيليين عادوا في ما بعد واعترفوا بأسر الجندي. أما المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، فقد استفزّ في أكثر من مقابلة، بعض سائليه من الإعلاميين، القاصدين إلى التعرّف منه إلى أعداد القتلى في صفوف الجيش الإسرائيلي جرّاء عدوانه على غزة. استفزّهم عندما راح يتهرّب من الإجابة محاولاً تغيير الهدف من السؤال، حارفاً الحديث عن مساره. كان ذلك قبل أن يعود الإسرائيليون ويعترفوا بمقتل جنود من جيشهم، وصل عددهم في يوم 29 تموز إلى 52 قتيلاً بحسب ما تم تداوله إعلامياً.

عن "ضبط النفس" و"الدفاع عن النفس" الإسرائيليَّين

1

يبدأ نصبّ الفخاخ للقارئ، الغربي على الأرجح، من العنوان: "اعترافات غولدا مائير". إذ يوحي بأن مؤلفته مائير نفسها، سوف "تعترف" بما قد لا يخطر على بال، كون كلمة "اعتراف" قد تحيل في معنى ما على دهاليز وكهوف وحُفَر وبواطن وأعماق، كما قد توحي بأن "المعترِف" يريد الكشف عن أخطاء وكوارث يشعر بضرورة البوح بها، كنوع من التكفير عن إثم أو آثام. لكن القارئ، النقدي على الأغلب، سوف يكتشف على مرّ أكثر من ثلاثمئة صفحة أن الكتاب، إن هو سوى ضرب من ضروب الترويج للصهيونية يكرس لها مفهوماً وواقعاً كحركة عنصرية تستند إلى اعتقادات زائفة وباطلة من أجل إمرار احتلالها أرض الفلسطينيين والمضيّ في مشروعها الاستيطاني التوسعي. ما من فكر أصيل وعميق في الكتاب، ما من ثقافة، ولا معرفة، ولا مستندات تاريخية موثوق بها تدعم المزعوم فيه. ولا أخلاق أيضاً. بل عنصرية وتعصّب وكراهية لا تتوانى عن إلصاق سمة الإرهاب بالعرب دونما أدنى إحساس بالخجل، أو حد أدنى من المعرفة. فإن كان يصحّ وصف تنظيم ما أو حزب ما، أو فرد ما بالإرهاب، فهل يصحّ – علمياً على الأقل- وصف قومية بالإرهاب؟!

في الصفحة 134 من الكتاب المذكور، ترجمة عزيز عزمي، دار "التعاون". تتحدث المؤلفة عن "سياسة ضبط النفس" فتعتبره "أصعب من الردّ والانتقام". وترى أن "الهافلاغا" هو "الأسلوب الأخلاقي الوحيد والأوحد الذي يجب اتّباعه". ثم تقول إن "الهاغاناه استخدمت سياسة ضبط النفس". معلوم أن الهاغاناه شأنها شأن عصابات أرغون وشتيرن، لم تتوان عن استخدام أشد الفظاعات والفظائات ضد الفلسطينيين، من أجل حملهم على مغادرة أراضيهم وبيوتهم. (غالباً ما يكون المبالغون في شأن التعقل والهدوء على مستوى الخطاب، المفرطون في الحديث عن القيم الإنسانية والأخلاقية السامية الرفيعة المستوى، على المستوى العملاني الواقعي نقيض ما يقولون. ويبدو أن الخواء أو النقص الهائل في القيمة المعنوية الذي يعانيه هؤلاء حيال الآخر، يدفع إلى تعويضه بشكل هائل في المقابل، ومبالَغ فيه على صعيد الخطاب).

أياً يكن، في الإمكان استنباط بؤس "ضبط النفس" الذي تتحدث عنه مائير، وزيفه، من خلال ما يجري الآن في غزة. يفترض ضبط النفس الممارَس من طرف، أن هناك طرفاً آخراً يعمد إلى الاستفزاز أو الابتزاز، ومع ذلك يبقى الطرف المستفَز هادئاً، متفهّماً، ولا يردّ بالمثل. لكن لنمعن قليلاً: فلنفترض جدلاً أن الرواية الإسرائيلية في شأن مقتل الشبان الإسرائيليين الثلاثة صحيحة، هل "ضبط النفس" هنا يستدعي الرد بعدوان رهيب من جانب "المستفَزّ" "على "المستفِزّ"، يطال أطفالاً ونساء وشيوخاً وأبرياء، ويعصف بالمدارس والمساجد والمستشفيات، ويحوّل مدينة إلى رماد وركام؟! أهذا هو "الهافلاغا"، الأسلوب "الأخلاقي الوحيد والأوحد الذي يجب اتّباعه"، كما درّست مائير وعلّمت؟! يبدو أنها كانت سلفاً "صالحاً" لخلف طالح. ألا يفترض "ضبط النفس" مثلاً، تفكير "المستفَزّ" في ضرورة فتح تحقيق رسمي قانوني من شأنه بيان الحقيقة والاقتصاص من "المستفِزّ" بعد التحقّق من ارتكابه الجرم فعلاً؟

عندما تؤكد تل أبيب رفضها الضغوط الدولية كافة في شأن وقف عدوانها على غزة، هل يعني هذا "ضبط نفس"؟ ترى، لماذا طالب مجلس الأمن يوم 10 تموز نتانياهو بـ"ضبط النفس" إذا كانت "النفس مضبوطة"؟ ولماذا حضّ الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون إسرائيل بعد اثني عشر يوماً على "ضبط النفس" أيضاً؟

2

ثمة بداهة تقول: إن الواقع تحت الاحتلال هو مَن يكون في موقع "الدفاع عن النفس" لا المحتل. لكن ليس مستغرباً بالنسبة إلى إسرائيل، على ما يبدو، باعتبارها دولة احتلال، اعتادت خرق القوانين الدولية والمنظومات الأخلاقية والإنسانية، أن تخرق بديهيات من هذا الطراز، وتنسب إلى نفسها صفة "الدفاع عن النفس" من دون أن يكون لها أصلاً أي حق قانوني دولي في ذلك. وما دامت الحكومات الغربية تعتبر إسرائيل جزءاً منها، فلا غرابة أيضاً في أن تؤيد "حق" إسرائيل في "الدفاع عن النفس"، بدلاً من أن تنصاع إلى شعوبها، وفق ما تقتضيه الديموقراطيات في تلك البلدان. إذ تجدر الإشارة هنا، إلى أن العديد من العواصم الغربية شهد احتجاجات ضد العدوان الإسرائيلي على غزة.

في كل الأحوال، لا تنفصل "سياسة المسكنة" الإسرائيلية عن خطاب "الدفاع عن النفس". إنهما وجهان للعملة ذاتها، ومن خلالهما على الصعيد الإعلامي، ومن خلال الحرب والعدوان على الأرض، تحاول إسرائيل "انتزاع" "الاعتراف" بها!

الضحيّة والجلّاد

ما فعله الإسرائيليون ولا يزالون باعتبارهم "ضحية"، دفعتهم عقدة "الاضطهاد الكوني" لأن يمسوا "جلّادين" على طريقة جلّاديهم، محوّلين بذلك الفلسطينيين إلى "ضحية" لهم، قد يجعل الأجيال القادمة من الإسرائيليين "ضحية غير مباشرة"، فيعود أولئك ضحايا بعدما صاروا جلّادين.

على صعيد فردي، قد يكون هناك إسرائيليون أو يهود متنوّرون يكرهون أن يقع الظلم الذي عانى منه شعبهم على شعب آخر، أي الشعب الفلسطيني، ويشمئزون من الخلاص من شعورهم بالنبذ والإقصاء، ومن ثم تحقيق الذات من خلال استباحة دماء الفلسطينيين وكراماتهم، وعلى أنقاض بيوتهم، ويفضّلون ألاّ يكونوا جلّادين ولا ضحايا بالدرجة نفسها. لكن يبدو أن هناك بالفعل "مأساة مبرمَجة تاريخياً"، وهو الوصف الذي حاول من خلاله محمد أركون، في حوار أجراه معه سليمان بختي، منشور في "النهار" بتاريخ 13 نيسان 2002، مقاربة ما يحصل في فلسطين اليوم. ويعني بذلك، كما جاء في معرض إجابته عن سؤال محاوِره حول المقصود من الجملة تلك، أن "قوة تاريخية لا تزال تعمل على إنتاج مصيرنا التاريخي وتسييره، ليس بعد سيطرة الاستعمار في القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا فحسب، بل بدأت هذه القوة تعمل في إنتاج تاريخنا، على ما أعتقد، منذ القرن الرابع عشر – وهناك دلالات كثيرة على ذلك". ثم يضيف متداركاً: "ولكن يجب أن يكون هناك اليوم في فلسطين، فلسطينيون يطرحون الأسئلة في قلب المأساة".

العلاقة بين الضحية والجلاد، كالعلاقة بين السيد والعبد، هي علاقة تضايف، لا يُفهم وجود أحدهما إلا من خلال وجود الآخر، بانوجادهما معاً. وعليه، لا تتحقق الكرامة الإنسانية من غير انعدامهما معاً.

ليس دينياً

في اجترار مستمرّ لخطابات الماضي، ومع تسلّح مستمر بعقدة "الاضطهاد الكوني"، يحاول الإسرائيليون دوماً تصوير السياسي على أنه ديني. لكن الأوروبيين لم يحلّوا "المسألة اليهودية" (مثلاً) لأسباب دينية، ولم يعمدوا إلى "إنشاء" دولة خاصة باليهود في فلسطين، لأن اليهود يهود كما يعتقد الإسرائيليون. بل يعتقد البعض ممن يقرأون التاريخ قراءة علمية، أن الأوروبيين نزعوا إلى التخلص من اليهود، بعد ولوجهم عصر النهضة، أي بعدما انكمش التفكير اللاهوتي، وساد طراز آخر من التفكير، براغماتي عملاني تجريبي، وصار يَنظر إلى اليهود باعتبارهم عبئاً على الاقتصاد والموارد. على المنوال نفسه، يسعى الإسرائيليون دائماً إلى تصوير صراعهم مع الفلسطينيين والعرب على أنه صراع ديني، مع أنه ليس دينياً، في جوهره على الأقل.

في مقال تحت عنوان "إسرائيل لا تفعل ولا تتكلّم باسم كلّ يهوديّ"، يعود إلى العام 2006، ترجمة نسرين نضير، لا يخفي كاتب المقال أندرو بنجامين، منذ البداية، غضبه حيال مزاعم إسرائيل وسياساتها. يقول: "أكتب بصفتي يهودياً وعضواً في كنيس. أكتب بصفتي شخصاً لا يزال عملُه الأكاديمي يعالج مسائل الهوية اليهودية وإرث "المحرقة". مع ذلك، أكتب مع حسٍّ متنامٍ بالعار. ومصدر هذا الشعور بسيط: تزعم إسرائيل أنها تواصل التصرف باسمي!". لا يخفي الكاتب غضبه أيضاً حيال المماهاة بين الديانة اليهودية والسياسات الإسرائيلية، وهي كما يقول "سياسات تتجلى في جَزْف المنازل في غزة وقصف المدنيين في قانا". يتحدث الكاتب عن استغلال إسرائيل للمحرقة، واستعمالها "لتدعيم حالة جيوسياسية معينة". ثم يخلص في مقاله إلى نتيجة تنطوي على تحذير: "ما لم يصبح اليهود مستعدّين للتعبير عن الحاجة إلى وضع حدٍّ لمماهاة اليهودية بإسرائيل، سيزدهر العداء للسامية. وما لم يصبح اليهود مستعدّين للقول إن المحرقة وإرثها ليسا من اختصاص دولة قومية ولا يبرّران الصهيونية بالأحرى".

بقي أن نسأل: في ضوء تظاهرات حاشدة شهدتها الضفة الغربية مثلاً، بل سقوط شهداء فيها يوم السادس والعشرين من تموز الذي سُمّيَ "جمعة الغضب" تعبيراً عن السخط حيال العدوان الإسرائيلي على غزة. يومّ دفعَ الصحافي الإسرائيلي يون بن يشي إلى القول: "يجب إنهاء الحرب والبحث عن مخرج بعد اشتعال الضفة الغربية". أو في ضوء إضراب عام عمّ الجليل والنقب داخل الخط الأخضر، وإضراب تجاري عمّ الضفة الغربية بما فيها القدس، وهذه الأخيرة شهدت أيضاً تظاهرات مناهضة للعدوان الإسرائيلي في اليوم الأول من عيد الفطر. في ضوء ذلك كله وغيره، هل انتفاضة فلسطينية ثالثة، تنقل فلسطين من بؤرة للمشكلات إلى مكان فسيح للحلول، أمر وارد؟

*كاتبة سورية

> **لا تنفصل "سياسة المسكنة" الإسرائيلية عن خطاب "الدفاع عن النفس". إنهما وجهان للعملة ذاتها، ومن خلالهما على مستوى الخطاب الإعلامي، ومن خلال الحرب والعدوان على الأرض، تحاول إسرائيل "انتزاع" "الاعتراف" بها!**

> **في اجترار مستمرّ لخطابات الماضي، ومع تسلّح مستمر بعقدة "الاضطهاد الكوني"، يحاول الإسرائيليون دوماً تصوير السياسي على أنه ديني وتصوير صراعهم مع الفلسطينيين والعرب على أنه صراع ديني، مع أنه ليس دينياً، في جوهره على الأقل**

شعر

جواد الساعدي

عيدكم مبارك!

خطبة مساجد نينوى

كلُّ عامٍ وأنتمْ:
أحياءٌ
تنامونَ في بيوتكمْ
وتستيقظونَ فيها.
كلُّ عامٍ وأنتم:
عظماءُ
سادةُ العالمْ
تجددون مآثرَ السلفِ الصالحِ
بِنطْعِ الرؤوس وطبخِها
بقليلٍ من النفطْ
وكثيرٍ من تهدّجْ
في كثيرٍ من دعاءْ
إذ لم يجدْ أطفالنا يوماً
غيرَ التهدّجْ،
طرّاً، من غذاءْ.

■■■

خطبة مساجد بغداد

كلُّ عامٍ وأنتمْ:
أحياءٌ
تنامونَ في بيوتكمْ
وتستيقظونَ فيها.
كلُّ عامٍ وأنتمْ:
نجباءُ
مهدّ الحضاراتِ
مهبطُ الوحيْ
ورسالةُ الأنبياءْ
كلُّ عامٍ وأنتمْ:
أوفياءٌ
منذُ جلجامشْ
تذهبونَ إلى أعمالكمْ
وإنْ كنتمْ
عاطلينَ عن العملْ
وإن تأخرتمْ
على الحواجزِ
وإن فاضت مجاريركمْ
شتاءً
أو شحَّ صيفكمْ
بماءْ
كلُّ عامٍ وأنتمْ:
أوفياءُ!
أطفالكم بلا مدارس؟
لا يهم
عالِمٌ واحدٌ يكفي
لكلِّ الأوفياءْ!
كفّوا عن الأسئلة
ألا يكفي
تنامون في بيوتكم
وتستيقظون فيها
نصفٌ أحياءْ؟

■■■

ترنيمة كنائس نينوى

أيها الباري
يا فسيحَ السماءْ
تعرّيتَ
وأنتَ الدفءْ
تعرّيتَ
وأنتَ الرداءْ
يا عليّاً على الدّمْ
يا دربَ الرجاءْ
تئِنُّ قلوبَنا إليكْ
وتمضي لصيقةً بكْ
أرواحُنا
فأنتَ المدبِّرْ
وأنتَ القضاءْ
أنتَ الفسيحَ
وأنتَ السماءْ.

■■■

خطبة مساجد غزة

كلُّ عامٍ وأنتم:
شهداءُ
كل عامٍ وأنتم:
في العراءْ
لا ضيرَ إن صار البحرُ قبراً
أو حفرنا قبوراً
في الهواءْ
لا فرقَ إن يحزنِ الإخوانُ...
أو يفرح الأعداءُ
أحزاننا تمضي
أفراحهم تمضي
كلُّ شيءٍ سيمضي
هباءً
في هباءْ
كلُّ عامٍ وأنتم:
شهداءُ
كل عامٍ ونحنُ:
على أروِاحكمْ
خطباءْ.

■■■

صدى الكنائس والمساجد الأخرى

آمين.

شعر

سهى عواد

المرأة التي ستموت غدا

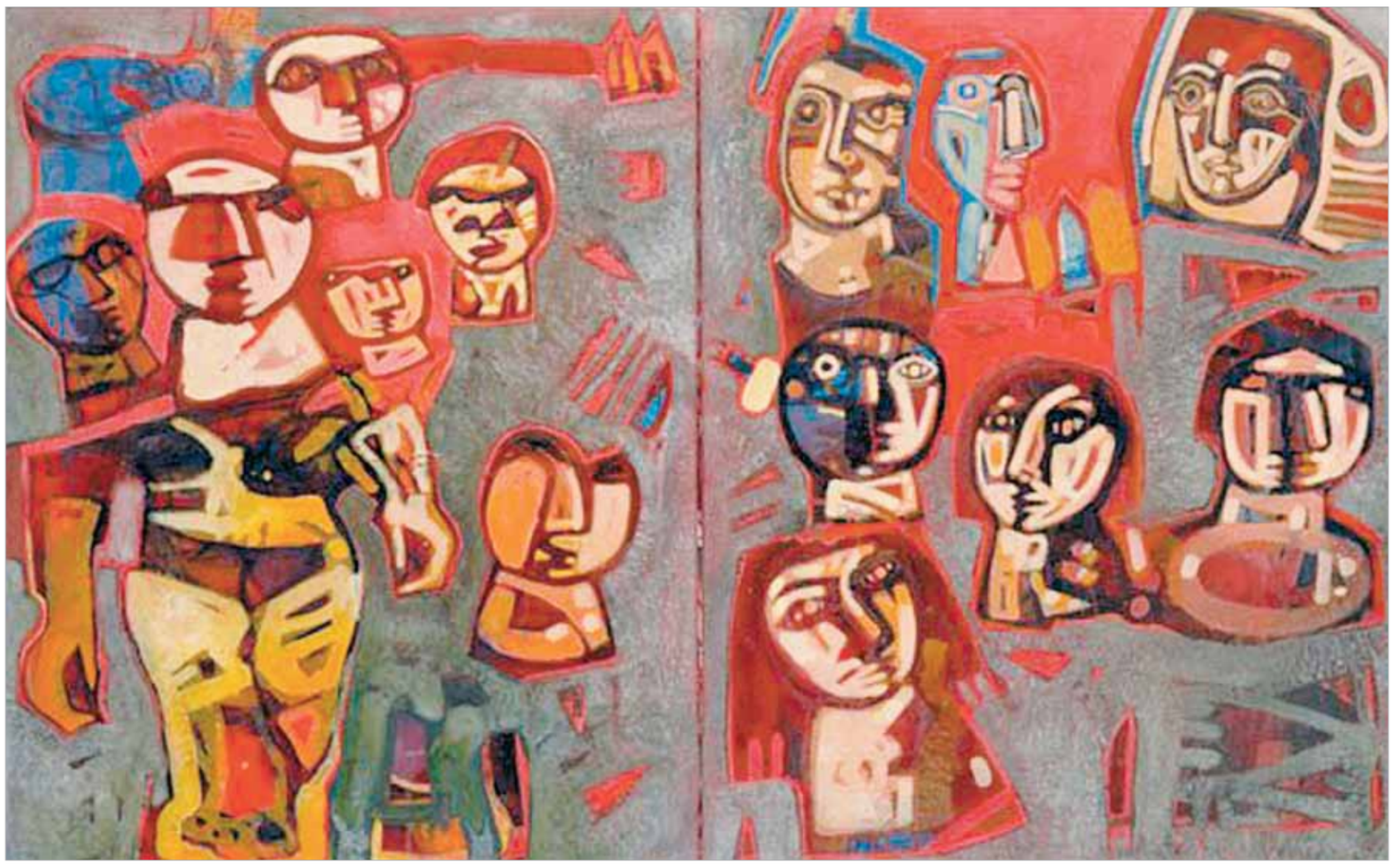

لوحتان لمنصور الهبر.

حادث مؤسف

ما يحدث الآن، لا يمكنه أن يحدث. لهذا السبب يحدث. كل الفرضيات مجرمة. كل الاحتمالات عاهرة. وما نحن سوى أبنائها. أنا ابنة الحادث 483930. أنا أمّ الحادث 8393023. كلّ هذا الأرق ما هو إلا خزي غير قادر على الانحدار، مثل عرق تلحسه الكارما عن جلدي.

■■■

عضلة تعبة

أمضيتَ ليلة أمس أفكّر فيكَ. فكّرتَ فيكَ طوال أمس. اليوم أيضًا. قررتَ أن أستمع مجددًا إلى الأغاني التي كنتَ ترسلها، والتي نحبّ. الأغاني المتباطئة حد الضجر، الأغاني النائمة التي ترسم خطوط جسدينا في سباتنا العميق على سرير عظامنا. الأغاني التي بالكاد تُغنّى، بالكاد تُسمَع، التي يتعذّب المغني في إيصالها، في إخراجها من حلقه كقبلة عنيدة. الأغاني التي لا أحد يريدها. في كل مرة استمع إلى واحدة من هذه الأغاني أعيدها فلا أكاد أتجاوز الاثنتين أو الثلاث في اليوم. مهمةٌ صعبة الاستماع إلى هذه الأغاني كلّها، وإدخال اللحن عبر أذني الصغيرة، كخيطٍ لا ينسج شيئًا. كالتفكير فيك.

أنتَ الآن في مكان بعيد. في مكانٍ بعيد جدًا. أنا هنا لا أستطيع فعل شيءٍ سوى الاستماع إلى هذه الأغاني. أحبس نفسي بالخيط الذي يخرج من أذني. ولا أنتظر أن يحدث شيء.

كنا دائمًا تعبَين من الحياة. نحقن نفسنا بالأغاني، بهذيان التخيلات، وننظر من شبّاك جلدنا في اتجاه قطارات قادمة لا نعرف ما اذا علينا رمي أنفسنا تحت سكّتها، أو مسابقتها. الخياران كلاهما يبدوان جيّدين.

في آخر مرة، على الرغم من كل الموت المتربص بكَ، تربطه بحذائك، وتجرّه؛ قلت لك إن الحل ليس بالموت، ولا بأي شيء آخر، إنما بالاستمرار نحو المجهول حتى الاصطدام بالحائط. حظّكَ سيئ.

أتذكر حين ذهبنا مرةً إلى ماليزيا؟ لا بد أنك تتذكر. هناك دخّنا الماريجوانا للمرة الأولى مع سائح فرنسي. جاوب أنه هنا من أجل الماساج، عندما سألناه لماذا أتى إلى ماليزيا. لم نعرف ماذا نجيب عندما سألنا السؤال نفسه. تلبّكنا ولم نقل له إنه البلد الوحيد الذي قد يستقبل أمثالنا من دون أي صعوبات أو فيزا. وقفنا خارجًا وأردنا أن نبدو ناضجين جدًا في حملنا الماريجوانا وشرق مكنونها من دون أن نسعل أو نختنق. بل حاولتَ أنتَ، أن تعصر عينيكَ وأن تأخذ نفسًا منها، كمدخّن عتيق. ربما حاولتُ أنا فعل الأمر نفسه. ثياب بيار كانت عبارة عن كرنفال ألوان وهو يحدّثنا عن مغامراته عبر العالم. قلت له إن عليه الذهاب إلى غزة في يوم ما. لأن غزة لا تحتاج إلى فيزا. ابتسم وقالَ لِمَ لا. ثم ناولكَ سيجارة أخرى. امتنعتَ عن أخذها قائلاً إنك لا تريد أن تشعر بنوع من الدين. ضحكتَ أولاً، ثم كل شيء بعدي. القليل، القليل من الراحة، كان كل ما حصلنا عليه من هذه السيجارة. لم نسترخ بالمطلق ولم نتخيل فيلاً داخل الغرفة أو شجرةً تنمو في فمنا. توقف الضجيج للحظات فقط. بدا لنا أن صعود اللذة سهل جدًا بدون استعمال لسان أو يد أو شفاه أو حتى عضلة واحدة تشدّ شراييننا الحميمة. لا شيء سوى دخان يطفو ونحن على سطح البناية. غريبٌ كيف أضع أحاسيسي فيكَ وأحجّمك لتصير صغيرًا جدًا كمفتاح في جيبي أو كرمش من رموشي، وأفرض عليك كل حالاتي من دون أن أشكّ حتى أن أحاسيسكَ قد تكون من الاختلاف بدرجات متفاوتة. هذا هو الحبّ: اعتبار الآخر رمشاً.

لا أدري حقا لمَ لا تذكر ماليزيا ولا غربانها في كل مكان. هناك قلت لي إن جسدي بابٌ لجسدكَ لأن مفاتيحنا يشبه بعضها بعضاً، بالرغم من اختلافاتنا التي قد تصدم العابرين أو الهواء الذي ينحبس بيننا عندما نكون ملتصقين. لا أدري فعلاً ما قد تعنيه جملة مثل هذه الآن. سوى مزيد من الهراء.

■■■

الأمل

تجثين على ركبتيكِ. الأرض ليست أرضًا بل صوت تعرفين أو تجهلين. صوت يقضم حلقكِ. ينام بين أحلامكِ. ينسلّ ويهب أعضائك للفقراء. تجثين على ركبتيكِ، كمن تردد صلاة العهر من الخلف فجرًا. أتبحثين عن مخرج؟ سيقصفون بيتكِ، ركبتيكِ الهشّتين، وبطنك الخالي. حبل سرّتكِ الذي تركتِه في قاعة المستشفى بالقرب من أمّك، سيهديك أياه حبيبك. أحبّيني مثل أمّك، مثل سرير أبيض. الفرس سرير يا جميلة الركبتين. أعلم أين تختبئين. أعلم. أعلم. أعلم. أعلم. أنا أكره الحرية، مثل كره المعدن اللحم الحيّ، كره التلفون لصاحبه. لذلك تجثين، بسبب هذا الكره. أجلبوا لنا المزيد من السلاسل، من كل الألوان والأشكال. سلاسل عليها قلوب ملوّنة، وأزهار. أجلبوا سلاسل مناسبة لكل عيد. فليكن احتفال الركوع احتفالنا يا جاثية. التصقي بالأرض أكثر. من دون تقبيل، ومن دون التحام، اعرفي حجمكِ. أنتِ عظمة. الأرض صوت. الجنس بينكم مستحيل. كوني مؤدّبة في ركوعكِ. مؤدّبة، من دون خشوع. مؤدّبة فحسب. كالخيط الذي يمر بين الأسنان. كحبل المصعد الكهربائي. كالزهور اليابسة. وابتعدي عن النافذة. لا نريد جثةً أخرى ندفنها.

■■■

قرصانة

تنام على سريرها، المرأة التي ستموت غدًا. وتحلم. بملايين الأشياء تحلم. بالضفدع الذي سيكون زوجًا مطيعًا، ويقشّر لها اللوز والجوز حتى تسودّ يداه. تحلم بشعره الطويل الذي يمطر أسيد الفرح وبقلبه المضلّع. تحلم وتخاف. تخاف أن تلتهمه وترمي عظامه في الصندوق الأسود تحت سريرها.

■■■

نوم

قد يسحبكَ النوم إلى نهايته. نحو بوّابته الكبيرة كتيّارٍ بحري عملاق. قد يلتفّ على عنقكَ. على جسمكَ كلّه. وقد تنزلق، معتقدًا أنكَ عائم. قد تثقلكَ الأحلام. مطمئناً، مغمض العينين، لن يتمكن غرقٌ من دغدغة أطرافكَ أو إغواء لاوعيكَ بحورياته. قد تذهب بعيدًا من دون أن تريد. أرجوكَ، كن متيقظًا. خذْ ما ينير طريقكَ، ولو عيني أحدهم.

■■■

بارانويا

أخرج في نزهة. المفتاح في جيبي. جائع. يأكل فتات الخبز ليكبر، ويصير طريقًا كاملاً، عليه ما يكفي من السيارات ليجذب انتحاريًا مبتدئًا، يرى في جيبي هدفًا سهلاً وسلّمًا إلى الجنّة، كما توصي أغنية ليد زبلن.

شعر

جوان سوز

سيرتي الذاتية الناقصة

إلى شيراز التي حملت الحياة والموت معاً بين كفيها

كثيرٌ من الحبّ، قليلٌ من الوقت
وفائضٌ من الانتظار.

■■■

الحياة ضربة جزاء، قد تصيب أو لا. كالحظّ تماماً.

■■■

إنّها سيرتي الذاتية الناقصة. تلك التي لن تكتمل أبداً.

■■■

أنا ابن جارك في الحيّ، لا علامات فارقة لديّ، طويل الشعر، وأبيض أيضاً، مهملٌ جداً، لا أنام، أفكر فيكِ في كل جزءٍ من الثانية، أخشى على سمعتكِ أكثر منكِ، أمرُّ من أمام والدكِ بخوف، وأكره والدتكِ كثيراً، تلك التي تغلق كلّ النوافذ بعجالة كلما رأتْ وجهي، كما لو أنني شيطانٌ أعمى، يراكِ فقط، وينظر إلى أخيكِ بعداوة. أنا ذاك الأزعر الشرير جداً أرى أختكِ بدلاً منكِ، وأتحسّر أسفل شرفتكِ: أبكي بعيداً عنكِ، وأصرخ أكثر من الأغاني الحزينة التي يسمعها جيراننا من أجلكِ في منتصف الليل، حين أعضّ أصابع الوقت ولا أندم.

■■■

أنا ابن جارك في الحيّ مرةً أخرى، أدخّن كثيراً، أشرب النبيذ، وأسعل أحياناً، عاطلٌ عن العمل، تركتُ الصوم في عام 2003، أكره المسلسلات التركية المدبلجة، أكره الدراسة، أقرأ الكتب، أكتب اسمكِ على سجلاّتنا المفقودة، أعرف لون بابكِ ونغمة جرسكِ ونمرة قدمكِ، وكم شبّاكاً في بيتكِ، وكم منها يطلّ على بيتنا، أعرف ماذا يفصلنا غير الشارع، أعرف متى يخرج والدكِ إلى العمل، أعرف متى تنام والدتكِ، أعرف إلى أيّ ساعة يسهر أخوكِ، أعرف أن أختكِ تنام في غرفتكِ، أعرف كم مرةً في الأسبوع تغسلين ثيابكِ، أعرف ماذا تطبخين كل يوم، أعرف كم مرةً تجلين الصحون، وأنا أطير فرحاً كلما سقط واحدٌ من بين يديكِ الصغيرتين.

■■■

أنا ابن جارك في الحيّ مرةً أخرى، أدخّن كثيراً، أشرب النبيذ، وأسعل أحياناً، عاطلٌ عن العمل، تركتُ الصوم في عام 2003، أكره المسلسلات التركية المدبلجة، أكره الدراسة، أقرأ الكتب، أكتب اسمكِ على سجلاّتنا المفقودة، أعرف لون بابكِ ونغمة جرسكِ ونمرة قدمكِ، وكم شبّاكاً في بيتكِ، وكم منها يطلّ على بيتنا، أعرف ماذا يفصلنا غير الشارع، أعرف متى يخرج والدكِ إلى العمل، أعرف متى تنام والدتكِ، أعرف إلى أيّ ساعة يسهر أخوكِ، أعرف أن أختكِ تنام في غرفتكِ، أعرف كم مرةً في الأسبوع تغسلين ثيابكِ، أعرف ماذا تطبخين كل يوم، أعرف كم مرةً تجلين الصحون، وأنا أطير فرحاً كلما سقط واحدٌ من بين يديكِ الصغيرتين.

■■■

أعرف في أيّ يومٍ كانت ولادتكِ وفي أيّ مشفى، أعرف كم تألمتْ والدتكِ التي كان ينبغي أن تموت في تلك اللحظة، أعرف كم خاتماً كان في أصبعكِ وباعها والدكِ في أزماته المالية، أعرف كم تصرفين من النقود على مكالماتكِ الشهرية معي، أعرف ماذا تكرهين وماذا تحبّين. رأيتُ أول صورة لكِ وعرفتُ أين كانت، عرفتُ من التقطتها لكِ، حفظتُ سيرتكِ الذاتية غيباً، أعرف من يعرف أنني أحبُّكِ الآن. إنّهم كثيرون أولئك الذين لا يجيدون شيئاً سوى النميمة. أتعرفين؟! لقد طعنوني في ظهري البارحة وأنتِ لم تكوني موجودة.

■■■

أنا زميلكِ القديم في الجامعة أيضاً، أصوّر لكِ كل محاضراتكِ التي غبتِ عنها، أمشي في كلية الآداب، ولا أرى سواكِ، على الرغم من وجود الأجمل منكِ بكثير، صدّقيني أجمل بكثير، لكنني أحبُّكِ، وحدكِ أنتِ، بحجابكِ وتقواكِ التي لا تعني لي شيئاً، أنا ذاك الذي لا يصلّي ولا يصوم، حبيبكِ الملحد جداً، كما كتبتُ لكِ في آخر قصيدة، لم أنشرها بعد خوفاً منكِ.

■■■

أنا حبيبكِ الجديد على ما يبدو، في مقهى النخيل، أجلس معكِ في القبو، أسفل الدرج على الطاولة رقم 10، بعيداً من الشاشات الحديثة التي غزت بلادنا بعدما هرمنا، أنا حبيبكِ الذي يكره التلفاز، ويحبُّكِ مرةً أخرى في مقهى النخيل أيضاً، أقف أمامكِ، أنظر إليكِ، أشرب القهوة من فنجانكِ، وتشربين القهوة من فنجاني قبل أن تهربي مني، كما لو أنّكِ فراشة، كما لو أنّكِ حلم قصير.

■■■

هذه المرة، أنا حبيبكِ الذي لم يكن لكِ ولا للآخرين، أنا ضيفٌ ثقيلٌ في بيتكِ وظلٌّ خفيفٌ جداً على رصيف شارعكِ، تبتعدين عنّي كلّما اقتربتُ منكِ.

■■■

اليوم أنا الذي كنتُ حبيبكِ، لا أعرف أصغر تفصيل عنكِ، رقم هاتفكِ، بريدكِ الإلكتروني، عنوانكِ الحالي، علبة ماكياجكِ الجديدة، رائحة عطركِ، لون صبغة شعركِ أيضاً، طول أظفاركِ، أنا الذي كنت حبيبكِ، لا أعرف الآن أيّ شيءٍ عنكِ.

* شاعر وصحافي سوري

شعر

عمر يوسف سليمان

ما لم تذكرْهُ وكالاتُ الأنباء

ثمة ما لم تذكرْهُ وكالاتُ الأنباء يا غودو:
النحلةُ التيّ نجت من القصف، ثم حطَّتْ على كفِّك، ليغلبها النعاس إلى الأبد.

الجنود الذين بأحذيتهم هزّوا الشعاب. كانوا يحلمون بنسائهم. من بين عشبٍ غطّوا به خوذاتهم، نبتتْ ذاكراتُهم كالورود، فامتصَّت النحلة رحيقها. لم يظلّ من الجنود سوى خلايا عسلٍ لها شكل الأرحام في كهوف الزمن.

منذ قرونٍ والنحلةُ شامةٌ هائمة في أكتاف الجبال، تمتصّ مناديل مبتلّة ببحَّةِ القطارات.

عجلاتٌ تدهس الحروب والنحلةُ غارقةٌ في صداها. هي كانت مطرةً قبل أن تصبح نحلة.

اسألِ السماءَ عن بطنها الفارق بالملح، وعن عيونها المغطاة بزرقة البدايات، يا غودو: على كفِّكَ مطرةٌ بجناحَين!

شعر

تمام هنيدي*

إلى إليانا طبعاً!

يوم كانت لنا بلاد، كنتُ أتأبط حقيبتي، كأنما قدمايَ على أهبة السفر. كنت أحملها دائماً، إلى المطبخ، إلى الحمّام حيث قرأتُ الكثير من الكتب، إلى الجامعة، إلى البيت، إلى المقهى، إلى الحانات التي عرفت وجهي طفلاً في زحام الوجوه المسنّة.

كنتُ أحمل حقيبتي إلى الملاعب حيث يشتم الجمهورُ اللاعبين والمدرّبين والحكّام وكلّ شيء، ويغضّون طرفاً عن صورة الرئيس في الاستاد.

ومثل شاعر ركيك حين سألتني صبيّةٌ أين أسكن، قلتُ ظَانّاً أني أقدّم فتحاً فكرياً: في هذه الحقيبة! حيث فرشاة أسناني، ثيابي الداخلية، كرّاسي الجامعيّ، الكتاب الذي أقرأه، ودفتر الملاحظات. لكنّني، مثلما ينتظر صيادٌ في نهر بردى سمكةً تسبح في ماء الليطاني، ظللتُ منتظراً. لم يمرّ قطارٌ واحدٌ يهزّ صنّارة صيدي، ويذهب بي لمرّةٍ واحدة. فقط لمرة واحدة!

لم أكن أعلم أن القطار سيجيء، عندما سأستلقي تحت دالية العنب قرب البيت، لأحاول فهم وقوف الدبّور على الحبّة التي أشتهيها، تاركاً حقيبتي لغبار الرفوف!

لم أوضّبها كما ينبغي، تركتُ الكتب، وثياب الشتاء وأكثر الأغراض، وظننتُ أنّ قميصاً صيفيّاً أو اثنين يكفيان إلى أن أعود.

شتاء الاسكندريّة الوقح كان أول من قال لي: يالسذاجتكَ!

حينذاك، اشتريتُ سترة للشتاء، وأصبحتُ مهاجراً.

مثلُ هذا تماماً، مثلُ هذا كله، كأن يسأمَ شابٌّ قلبَةَ المعطوب فيرميه، فيباغته الحبّ من الخاصرة.

كأن يحلم سوريٌّ بالفجر بعدما أعتمت عيناه، فيجيء ليلٌ طويل، ثمّ يحلم بالليل فتجعل القذيفةُ كلّ وقتٍ نهاراً.

مثلُ هنديٍّ لم تخرج أفعاهُ على صوت الناي ليصفق الحاضرون. هكذا تأتي المفاجآتُ عادةً. كان على هذا كلّه أن يحدث كما حدث تماماً. كان على الهنديّ أن ينتظرَ أفاعي اعتاد خروجها (لولا الضوء الذي خرج من الجرّة لكان الهنديّ إلى اليوم يعزف وينتظر التصفيق!)

على السوريّ أن ينتظر الفجر، ثمّ ينتظر الليل، ثمّ... لا ينتظر. وكان عليّ أن أفكّر في الدبّور وكيف يسرق حبّة العنب التي أشتهيها، وأن أترك هاجس حقيبتي، والحقيبة للغبار. لكي أستطيع الآن، أن أرى الطريق في اتجاهين، وأن أرى الغياب قريباً دائماً مثل الحضور، لأحتفل كما ينبغي بهذا اليوم الذي، كأنّه اليوم الأخير في الحياة.

لو طلب أحدهم مني أن أكتب عبارةً كيف حصل هذا كلّه، لكنتُ فكرتُ قليلاً، وابتسمتُ، وشربتُ القهوة مع الهال، كتلك التي أحبّها ولا تحبينها، وقلت: مثل مسافرٍ جاء قطارُهُ بعدما رمى حقيبته.

هكذا تجيئين، فأقتنع أنّ الحياة أكثر جمالاً بلا حقائب.

* شاعر سوري مقيم في أسوج